الفصل الرابع

دور حكام الأقاليم فى الحياة السياسية

- إطلالة على الحياة السياسية.
- نفوذ حكام الأقاليم بين القوة والضعف.
- العوامل التى هيأت لحكام الأقاليم التدخل فى الحياة السياسية.
- دورهم فى مجال السياسة:-
  - أ- فى السياسة الداخلية.
  - ب- فى السياسة الخارجية.

الفصل الرابع

دور حكام الأقاليم فى الحياة السياسية

إطلالة على الحياة السياسية للدولة ومشاركة حكام الأقاليم فيها:-

من المعروف فى التاريخ بشكل عام أو حياة أية دولة مثلها مثل حياة الإنسان، تبدأ ضعيفة حيث تكون فى دور البداية، ثم تقوى ويشتد عودها، ويتسع سلطانها، بل ربما تمتد حدودها لتشمل أجزاء مترامية ، وما تكاد تصل إلى هذه المرحلة إلا ويبدأ الضعف والفتور يتسلل إليها، هذا الضعف الذى يبدأ من داخل الدولة، ويعمل على النخر فى عظامها حتى تصبح هشة ضعيفة ، وهنا يجد الأعداء الفرصة للانقضاض عليها من الخارج وكلما ازداد الأمر سوءا فى الدولة ازداد الأمر سهولة ويسراً على الأعداء، إذ أنه فى بعض الأحيان يكون دخولهم إلى البلاد من بعض القائمين على الأمر بها، وهنا تكون النهاية.

أما عن دولة الخلفاء الفاطميين فى مصر، والتى يعتبر عصرها بدءا لعصر جديد فى تاريخ مصر،إذ لم تتمتع البلاد باستقلال كامل وخلافة مستقلة قبل ذلك الحكم الفاطمى، والذى بدأ فى مصر سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م عندما نجح جوهر الصقلى فى دخول البلاد وبعدها أخذ فى وضع أسس هذه الدولة وتثبيت أركانها، كنائب عن خلفائها الذين كانوا لا يزالون يستقرون فى المغرب،إلى أن سلم مقاليد الأمور للخليفة المعز لدين الله الفاطمى ٣٦١-٣٦٥هـ/ ٩٧١-٩٧٥م، والذى أخذ يعمل على إكمال ما بدأه جوهر فى مجال بناء الدولة، وفى هذه المرحلة- والدولة لاتزال فى دور التكوين- ظهرت حركات تمرد وثورات عديدة، عانت منها الدولة كثيرا[(١)].

ومع المعز ومن جاء من بعده من الخلفاء بمصر، وحتى عهد المستنصر بالله[٤٢٧-٤٨٧هـ/ ١٠٣٥-١٠٩٤م] أى حوالى طيلة قرن من الزمان، كانت الدولة تعيش فى دور القوة، حيث تم تثبيت أركانها، وقوى نفوذها، واتسع سلطانها، وامتدت حدودها، والتى وصلت فى فترة من الفترات إلى بغداد – عاصمة العباسيين- نفسها، حيث تمتعت الدولة فى هذه الفترة- باستثناء بعض السنوات من عهد الحاكم بأمر الله[٣٨٦- ٤١١هـ/ ٩٩٦-

(١) عن هذا بالتفصيل: انظر – محمود خلف : الثورات وأثرها على الحياة فى العصر الفاطمى، ص ٥٠،وما بعدها.

١٠٢٠م)– بمجموعة من الخلفاء عرفوا بقوة الشكيمة وشدة السطوة، خرجت معهم كل الأصوات، وصغرت بجانبهم كل الشخصيات، وما كان هذا إلا لاهتمامهم بالدولة وشئونها، وانصرافهم عن الدنيا وملذاتها، وقد استمر هذا الوضع قرابة قرن من الزمان، وهو النصف الأول من العصر الفاطمى، أما مع النصف الثانى من العصر الفاطمى، وبالتحديد فى عهد الخليفة المستنصر فقد تغير الوضع ،وأصبح الانصراف عن الدولة وشئونها إلى الدنيا وملذاتها سمة من سمات هذه الفترة، حيث ظهر آنذاك مجموعة من الخلفاء ممن انغمسوا فى اللهو والمجون، أو عرفوا بضعف الشخصية أو صغر السن. وهنا سنحت الفرصة للوزراء للتحكم فى الدولة وسياستها، فبدأ ما عرف " بعصر الوزراء العظام "، وهنالك ضاعت شخصية وهيبة الخلفاء ، وهانوا فى أعين رجال دولتهم من وزراء، وأمراء، بل وحكام الأقاليم، والذين وجدوا فى هذا الفرصة للتدخل فى سياسة الدولة بل وتسييرها بما يتفق مع مصالحهم. ومهد الطريق أمام حكام الأقاليم لجوء الخلفاء، أو أهليهم، أو نساء قصورهم،إلى هؤلاء لطلب المساعدة، وإنقاذهم مما هم فيه، وهنا سنحت لحكام الأقاليم الفرصة للتدخل فى سياسة الدولة، بل فى اختيار الخليفة نفسه، متجاهلين فى ذلك مبادئ المذهب الإسماعيلي ونصوصه فيما يخص هذه الناحية، مستغلين الضعف والهوان الذى منيت به الدولة. ولإيضاح الصورة بشكل أكبر نتعرف على بعض جوانب أو مواقف من حياة الخلفاء ، وما قام به حكام الأقاليم آنذاك.

فمثلا نجد أن الخليفة المستنصر بالله الفاطمى، انغمس فى اللهو والمجون إلى درجة فاقت الحد، أفاض المؤرخون فى وصفها(١). ولم يتحقق معها استقامة للدولة، حتى ظهر الاجتراء على الخليفة، الذى انخرق ناموسه، وقلت مهابته وتناقصت حرمته(٢). ومدت الأيدى إلى أمواله وخزائنه، حتى وصل الأمر إلى أن الخليفة نفسه لم يجد ما يقتات به(٣)،وقتل وزراؤه بمعدل كل يوم وزي(٤)، ودخلت البلاد فى أزمة استمرت سبع سنوات

(١) الأزدى: أخبار الدول المنقطعة، ص ١٤٥، النويري: نهاية الأرب، ج٢٨، ص ٢٢٤، المقريزى:اتعاظ، ج٢، ص ٢٦٥

(٢) المقريزى:اتعاظ، ج٢، ص ٢٧٥.

(٣) الأزدى: أخبار ، ص ١٤٦.

(٤) الأزدى: نفسه ص ١٤٥.

٤٥٧- ٤٦٤هـ/ ١٠٦٤- ١٠٧١م[١]، ومع هذا الوضع اضطربت أحوال الأقاليم، وظهرت حركات التمرد ومحاولات الاستقلال فى بعض الأقاليم، حيث استبد كل أمير بما تحت يده ، بما يستدعى وجود حاكم قوي حازم ليعيد للدولة هيبتها[٢]، وللأقاليم استقرارها، فى وقت كان الخليفة فيه لا حول له ولا قوة، ورجال الدولة وأمراؤها منصرفون إلى تحقيق أطماعهم وأغراضهم الشخصية، دون أقل عناية بالدولة أو الرعية.

ولما اشتدت الأزمة، وضاق الأمر، وفى محاولة من الخليفة المسلوب الإرادة لإنقاذ الموقف، اتجه للاستعانة بأحد ولاته على الأقاليم التابعة للدولة، وهو الأمير" بدر الجمالى" والى دمشق، الذى تحرك من عكا، وركب البحر فى وقت لم تجر العادة بركوبه فى مثله، حتى وصل القاهرة فى جمادى الأولى وقيل الآخرة سنة ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م فولاه المستنصر تدبير أموره وقامت به الهيبة[٣]، حيث قضى على المتسببين فى الفتنة، وقمع المفسدين[٤] فخلع عليه المستنصر بالوزارة، وصار أمر المستخدمين فى حكمه والدعاة والقضاة نوابه[٥]. وكان هذا بدء عصر جديد عرف بعصر نفوذ الوزراء العظام، الذين أصبحوا أصحاب الأمر والنهى وبجانبهم تراجعت مكانة الخلفاء، الذين تنازلوا عن الصدارة لوزرائهم[٦] هذا عن ثامن ثامن الخلفاء العبيديين، والخامس من خلفاء مصر والشام، والذى وصل به الأمر أن فرض مماليك بدر الجمالى بعد وفاته تنصيب ابنه فى الوزارة من بعده، لدرجة أن قالوا له: " إذا أقمت هذه القضية، قطعناها بهذه السيوف، وجردوا سيوفهم"[٧]

(١) عرفت هذه الأزمة فى التاريخ باسم الشدة المستنصرية، والتى استمرت سبع سنوات فشبهها المؤرخون بسنى يوسف- عليه السلام- وكان ابتداؤها فى سنة سبع وخمسين وأربعمائة، واشتدت من سنة إحدى وستين ، وكثر الوباء بالقاهرة ومصر، حتى إن الواحد كان يموت من البيت فيموت فى بقية اليوم أو الليلة كل من بقى فيه، وخرج من القاهرة ومصر جماعة كثيرة إلى الشام والعراق، وأكل بعض الناس بعضا، ودام ذلك إلى سنة أربعة وستين، النويرى: السابق، ص ٢٣٣.

(٢) إبراهيم على شعوط وذكى محمد غيث: مصر من عهد بناة القاهرة، ص ٨٨.

(٣) الأزدى: أخبار، ص ١٤٧.

(٤) السجلات المستنصرية، ص ١٨٤: ١٨٧.

(٥) النويرى: نهاية الأرب ،ج٢٨، ص٢٣٥.

(٦) المقريزى: اتعاظ، ٣/٧.

(٧) ابن ميسر: أخبار مصر، ص ٥٤

وبعد المستنصر ابنه تولى المستعلى (٤٧٨-٤٩٥هـ/ ١٠٩٤-١١٠١م) والذى وصل إلى الخلافة بيد الوزير الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالى بدلا من أخيه نزار (الأحق بالخلافة). ومما لا شك فيه أنه معنى وصول الخليفة إلى كرسى الخلافة بمساعدة الوزير، إذن فقد أصبح صاحب الفضل عليه، وبالتالى تهيأت الفرصة أمامه للقيام بأمور الدولة منفردا، بعد أن أصبح الخليفة لا حول له ولا قوة.

وبعد وفاة المستعلى أجلس الأفضل ابنه أبا على منصور وله من العمر خمس سنين وشهر، ولقب بالآمر (٤٩٥ – ٥٢٤هـ / ١١٠١ – ١١٣٠م)، ومعه قام الأفضل بتدبير الأمر كما كان أيام أبيه المستعلى[١]، ثم ما لبث أن قتل هذا الخليفة فى ذى القعدة سنة أربع وعشر وخمسمائة، حيث قتل تحت ستار الليل وهو سكران[٢].

ويوم قتل الآمر بويع "لأبى الميمون عبد المجيد بن محمد بن المستنصر" على أنه كفيل لولى العهد المنتظر، ولقب بالحافظ لدين الله (٥٢٤ –٥٤٤هـ/ ١١٣٠ – ١١٤٩م)، وفى عهد هذا الخليفة بدء يظهر تأثير حكام الأقاليم فى الحياة السياسية – فعلى الرغم من أن هذا الخليفة كان أكبر الجماعة الأقارب سنا[٣]، إلا أنه قد وقع فى عهده عدة أحداث بينت مدى الضعف والهوان الذى وصل إليه هؤلاء، كما فتحت الباب أمام حكام الأقاليم للتدخل فى سياسة الدولة. فقد بدأ هذا الخليفة عهده بعدم قدرته على تنصيب الوزير الذى اختير، بل أجبر على تنصيب" أبى على أحمد بن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى" الملقب بكتيفات، والذى وصل به الأمر إلى اعتقال الخليفة والدعاء للإمام المنتظر[٤]، واستولى على جميع ما فى القصر[٥]

---

(١) الأزدى: أخبار، ص ١٥٧، النويرى : نهاية الأدب: السابق، ص ٢٧٤.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الزهور، ج١، ص ٢٢٣.

(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ١٣٧.

(٤) النويرى: السابق، ص ٢٩٦، المقريزى: اتعاظ ،ج ٣، ص ١٤٠. وذكر البعض أن أبا على دعا لنفسه هو على المنابر بناصر إمام الحق هادى العصاة إلى اتباع الحق، مولى الأمم ومالك فضيلتى السيف والقلم. أبو المحاسن: النجوم، ج ٥، ص ٢٣٨.

(٥) أبو المحاسن: النجوم،ج ٥، ص ٢٣٥.

لكن سرعان ما أخرج الأجناد أبا الميمون من محبسه وبايعوه بالخلافة[١]، وبعدها استوزر مملوكه " أبا الفتح يانسى الحافظى[٢] ولقب أمير الجيوش (٥٢٦هـ/ ١١٣١م) فظهر هو الآخر شيطانا ماكرا بعيد الغور حتى خافه أستاذه، فتحيل عليه حتى قتله[٣]، ثم ما لبث أن استبد به ابنه الحسن[٤]، الذى تمكن من الدولة وتصرف فيها بحسب رأيه، حتى لم يبق للحافظ معه حكم[٥]. بل وصل الأمر أن دعا لنفسه وكاتب الأمراء وعول على اعتقال أبيه، وأطمع الناس فيما يواصلهم به إذا تم له الأمر، فامتدت إليه الأعناق، وكاتب الأمراء وكاتبوه[٦]، وكان الحسن قد كاتب بهراق الأرمنى حاكم إقليم الغربية آنذاك يطلب منه المساعدة بقواته من الأرمن[٧]. إلا أن بهرام بما أوتى من ذكاء وحسن سياسة رفض تقديم المساعدة للحسن الذى اضطر أمام ضعف موقفه، وانتفاض الأتباع من حوله إلى اللجوء لأبيه الذى لم يتمكن من حمايته، بل قام بقتل ابنه[٨]، وما كان ذلك إلا عجزا من الحافظ عن القيام بحماية ابنه أو حتى نفسه أمام ضغط الأمراء، ومطالبتهم له بتسليم الحسن ليقتلوه بأنفسهم[٩]. وآنذاك كان الخليفة قد كاتب " بهرام الأرمنى" والى الغربية بالتقدم بحشوده إلى إلى القاهرة، التى وصلها فى جمادى الآخرة سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٤م، فكان أن أمسكه الأجناد بظاهر القاهرة وأدخلوه على الحافظ ليوليه الوزارة. فولاه وهو نصرانى مع كره لذلك

(١)الأزدى: أخبار، ص ١٦٤.

(٢) يا نسى: كان قد أهداه باديس جد عباس الوزير إلى الأفضل بن أمير الجيوش، فترقى فى الخدم إلى أن تأمر، وتقدم وولى الباب، وهى أعظم رتب الأمراء وكنى بأبى الفتح ولقب بالسعيد، ثم نعت فى وزارته بناصر الجيوش سيف الإسلام، وكان عظيم الهيبة بعيد الغور، كثير الشر، وكانت وفاته فى ذى الحجة سنة ٥٢٦هـ بعد وزارة استمرت تسعة أشهر وعدة أيام، المقريزى: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ١٤٥.

(٣) أبو المحاسن: النجوم ، ج ٥، ص ٢٤٠.

(٤) وكان سبب هذا الخلاف بين الحافظ والحسن هو أن الحافظ جعل ولاية العهد لابنه حيدرة دون الحسن إلى أن اضطر الحافظ أن يجعل ولاية العهد للحسن، عن هذا الخلاف وأحداثه بالتفضل انظر: النويرى: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٢٩٩: ٢٣٠.

(٥) النويرى: السابق، ص ٣٠٠.

(٦) أبو المحاسن: النجوم، ج٥، ص ٢٤١.

(٧)ابن ميسر: أخبار، ص ١٢١: ١٢٢.

(٨)المقريزى: اتعاظ، ج٣، ص ١٥٤: ١٥٥.

(٩) الأزدى: أخبار، ص ١٦٥: ١٦٦، المقريزى: اتعاظ، ج٣، ص ١٥٦.

لتسكن الفتنة[١]، فما أن وصل بهرام للوزارة إلا واستبد بالأمر وتحكم دون رأى الخليفة[٢]، الخليفة[٢]، فلما زاد أمره وثقلت وطأته خافه الأمراء، فكاتبوا والى الغربية الأمير " رضوان بن بن ولخش" الذى حشد حشوده ودخل القاهرة، ففر منها " بهرام" وخلع على " رضوان" خلع الوزارة فى جمادى الأولى سنة ٥٣١هـ / ١١٣٦م[٣]. فكان أن دبر الأمر أحسن تدبير[٤]، لكن سرعان ما هم بخلع الحافظ، وقال" ما هو بخليفة ولا إمام وإنما هو كفيل لغيره، وذلك الغير لم يصح[٥]، إلى أن أمر الحافظ مقدمى السودان بالهجوم على رضوان وقتله، فقتل بسيف أحدهم سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م، وذلك بعد أن ثقلت وطأته[٦]. وبعدها لم يستوزر الحافظ أحداً، بل كانوا كتابا[٧]، وذلك لما رأى من سطوة الوزراء وشدة وطأتهم عليه، حتى إنه أصبح لا رأى له معهم، ثم ما لبث أن توفى سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م، بعد حياة مليئة بالأحداث التى تؤكد على ضعف خلفاء هذه الفترة، وهوان أمرهم فى أعين رجال دولتهم، بل وصل الأمر بهذا الخليفة إلى الاستنجاد بولاة أقاليمه.

وبعده بويع بالخلافة لأبى المنصور إسماعيل بن عبد المجيد، وهو أصغر أولاد أبيه سنا، ولقب بالظافر بأعداء الله (٥٤٤ – ٥٤٩هـ / ١١٤٩ – ١١٥٤م) وبعد أن تمت له البيعة، فرق الأموال فى الأتراك والعبيد، أخذ هو فى العب واللهو، والانفراد بالجوارى، وسماع الأغانى[٨]. فإذا كان هذا هو حال خليفة العهد، فهل يمكن أن يستقيم أمر مع هذا الحال؟ فى الواقع أنه لم ولن يكون هناك استقامة أبدا. ويكفى دليلا لهذا أن نعرف بأن أول وزرائه وهو ابن مصال لم يقم فى الوزارة أكثر خمسين يوما فقط، حيث ثار عليه أن" ابن السلار" وكان واليا بالإسكندرية، ودخل القاهرة وراسل الظافر والمدبر له من النساء فى توليته

(١)المقريزى: اتعاظ، ج ٣، ص ١٥٦.
(٢) د. سهام أبو زيد: تاريخ الأرمن، ص٧٨: ٧٩ .
(٣) المقريزى: اتعاظ، ج ٣، ص١٦١.
(٤) النويرى: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٠٣.
(٥)المقريزى: اتعاظ، ج ٣، ص١٦٦.
(٦) النويرى: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٠٥.
(٧) الأزدى: أخبار، ص ١٦٨، النويرى: السابق، ص٣٠٩.
(٨) الأزدى: أخبار، ص ١٧١.

الوزارة، فكان أن أجيب إلى ما سأل. وهرب ابن مصال. فندب له الوزير الجديد والى الغربية فقتله[١]، وهو ربيبه " عباس"، والذى ما لبث أن وصل هو للوزارة بعد قتله لابن السلار، على يد والى مصر وهو ولده " نصر بن عباس"، والذى ما لبث أن قتل الخليفة نفسه[٢]، بل دخل دخل الوزير قصر الخلافة وقتل أخوى الظافر بحجة أنهما قتلاه[٣]، مع علمه جيدا بقاتله، بل بل وبايع لطفل صغير عمره خمس سنوات اختل عقله من كثرة ما شاهد من أهوال يوم مقتل أبيه، وانفرد عباس بتدبير الأمور، ولم يبق مع يده يد[٤].

فأى هوان هذا؟! والذى أوصل الوزير بأن جلس للمنادمة يوما، فلما أخذت الكأس منه قال " تبا لمن يعتقد إمامة هؤلاء، ويقول أنه لا يكون إمام إلا بوصية، والله لقد قتلت الظافر ولا علم عنده بذلك حتى يوصى، ولقد استعرضت أقاربه كالغنم إهانة وذبحا، وقدمت هذا الملقب بالفائز وعمره خمس سنوات، وعلى يدينا ذهبت دولتهم بالمغرب، وكذلك تذهب بالمشرق[٥]" فأى ضعف وضياع بعد هذا القول لمن كانت شخصياتهم مقدسة ومنزهة.

وبعد وصول الفائز للخلافة (٥٤٩ – ٥٥٥هـ / ١١٥٤ – ١١٦٠م) لم جد نساء القصر بد من الاستعانة بأحد حكام الأقاليم وهو " طلائع بن رزيك" متولى " منية بنى الخصيب" [٦] الذى حشد حشوده وتوجه إلى القاهرة، فكان أن أخرج عباس لوقته متوجها إلى الشام، وقام طلائع بدفن الخليفة المقتول، وكفالة الصغير وتدبير أحوال المملكة[٧]، وأصبح هو الوزير وهكذا وصل الأمر أن تكون حماية الخلافة والخلفاء بيد أحد ولاة الأقاليم.

(١) الأزدى : أخبار، ص ١٧١.
(٢) الأزدى: أخبار، ص ١٧٢: ١٧٥، النويرى: السابق، ص ٣١١، ٣١٤: ٣١٦، المقريزى: اتعاظ، ج ٣، ص ٢٠٨: ٢٠٩.
(٣) المقريزى: اتعاظ، ج ٣، ص٢١٣.
(٤)النويرى: السابق، ص ٣١٨.
(٥) المنادى: الوزارة والوزراء، ص ١٤٠.
(٦) منية بنى الخصيب: وهى مدينة المنيا الحالية، قاعدة محافظة المنيا، وتنسب إلى الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر من قبل هارون الرشيد. محمد رمزى :القاموس الجغرافى، ق٢، ج٣، ص ١٩٦: ١٩٧.
(٧)الأزدى: أخبار، ص ١٧٧: ١٧٨، النويرى: السابق، ص ٣١٨: ٣٢١.

وبعد وفاة الفائز بويع للعاضد آخر خلفاء بنى عبيد (٥٥٥ – ٥٦٧هـ / ١١٦٠ – ١١٧١م) وقد بايعه الصالح طلائع لصغر سنه[١]، فكان أن استقر الأمر للخليفة اسما ولطلائع رسما، هذا الوزير الذى استبد بالأمر وقتل أمراء المملكة وأضعف أحوالها[٢]. ولما ضاق الأمر بالعاضد ونساء القصر دسوا للصالح من قتله، ولكنه تمكن قبل أن تدركه المنية أن ينصب ابنه فى الوزارة من بعده[٣]، والذى استمر فى الوزارة إلى أن خرج عليه أحد ولاة الأقاليم فقتله سنة ٥٥٨هـ ١١٦٢م. ومن هذا الوقت وحتى نهاية الدولة سنة ٥٦٧هـ – ١١٧١م كانت هذه الحقبة عبارة عن مرحلة صراع وحرب مريرة للوصول إلى الوزارة وتحقيق أطماع شخصية، بل وصل الأمر للاستعانة بالفرنج، وكذلك بحكام بلاد الشام، مما عجل بسقوط الدولة، ونهايتها على يد وزرائها، وهذا كله دون أن يكون للخلفاء فى الأمر شيء، بل هم فى حالة– تكاد تكون تامة– من التغيب وضياع الشخصية وإلى جانب ما سبق هناك أمر جدير بالبحث والدراسة، وهو أثر المذهب واعتناق حكام الأقاليم له على الحالة السياسية للبلاد. فبالنسبة للمذهب الإسماعيلى واعتناق حكام الأقاليم له[٤] فلم تصرح المصادر بهذا،مما يصعب معرفة مدى أثره على سياسة الدولة. لكن مما يلفت النظر أنه كان لحكام الأقاليم السنة أثر لا يستهان به فى سياسة الدولة، وكان ما قاموا به من أعمال يعد الممهد الأكبر لزوال الدولة. فعلى سبيل المثال نجد الأمير " رضوان بن ولخشى" والأمير" على ابن السلار"، وهما أميران سنيان قد لعبا دورا لا يستهان به فى سياسة الدولة –كما سبق – لكن الدور الأكبر، والأثر الأبعد، هو قيام هذين الأميرين بالعمل على القضاء على مذهب الدولة، ونشر وإقرار المذهب السنى، وذلك بأعمال عديدة، تجلى الأثر الأكبر لها فى إنشاء كل منهما لمدرسة لتدريس مذهب أهل السنة، فضلا عن اختيار موقع متميز لهاتين المدرستين، وهو الإسكندرية[٥].

---

(١) المقريزى: اتعاظ، ج ٣، ص ٢٤٣.

(٢) الأزدى: أخبار، ص ١٨٠، المقريزى: اتعاظ، ج ٣ ، ص٢٤٤.

(٣) المقريزى: اتعاظ، ج ٣، ص ٣٤٦: ٣٤٩.

(٤) عن اعتناق حكام الأقاليم للمذهب. انظر الفصل الثالث، ص(١٣٩: ١٤٠)

(٥) سيفصل الحديث عنهما فيما يأتى.

كانت هذه نظرة سريعة على الحالة السياسية للدولة، والتى أعطت الفرصة لذوى الشخصيات الطموحة – خاصة حكام الأقاليم – للتدخل فى سياسة الدولة، وتحقيق مآربهم، حيث كانت البيئة صالحة آنذاك لنمو، بل استفحال أمر هؤلاء، دون أن يوجد رادع أو محاسب لمن تسول له نفسه القيام بمثل هذه الأعمال، وحتى إن وجد المحاسب أو الرادع فكان مؤقتا، ولهذا ظهر فى ذلك الوقت تنافس شديد على السلطة، يتمثل فى تغليب المصلحة الشخصية على المصلحة العامة[1]. مما أدى إلى إضعاف الدولة داخليا على كافة المستويات، حتى أصبحت البلاد تعيش فى دور كبير من الفوضى السياسية وسفك الدماء، والمكائد والدسائس التى تحاك باستمرار.

ومما لا شك فيه أن هذا كله أضعف الدولة داخليا، وجعلها فريسة سهلة لأعدائها المتربصين بها من كل جانب، فكان أن اشتدت وتكررت هجماتهم على البلاد، تلك الأمور التى هيأت لحكام الأقاليم القيام بدور فى التصدى له ومقاومته، لكن كان الخطب الجلل الذى حدث مع استدعاء بعضهم للأعداء، ومن ثم كان دخولهم البلاد بمساعدة بعض هؤلاء.

ولا يغيب عن بالنا أنه كان لبعض حكام الأقاليم اليد الطولى فيما منيت به البلاد من الفوضى والخراب والدمار، هؤلاء الحكام الذين زاد نفوذهم بشكل كبير حتى أصبحوا مصدر قلق للدولة.

نفوذ حكام الأقاليم بين القوة والضعف:–

سبق القول أن عصر الخلفاء الفاطميين فى مصر مر بمرحلتين متباينتين، إحداهما تتميز بقوة الخلفاء وشدة سطوتهم، لدرجة أخضعت لهم جميع الرقاب، وعليه كان ضعف نفوذ حكام الأقاليم. أما المرحلة الثانية فقد امتازت بضعف الخلفاء وضياع شخصياتهم، وسيطرة الوزراء على مقاليد الأمور بالدولة، وعليه اختلف الوضع، ووصل نفوذ وسلطان حكام

(١) غالب عبد الحميد على شفير: الساسة الداخلية للدولة الفاطمية بعد المستنصر، ص٤٧.

الأقاليم إلى درجة لم يسبق لها مثيل. وذلك لأن العلاقة بين نفوذ حكام الأقاليم ونفوذ الخلفاء عكسية[١].

وفضلا عن هذا كان هناك عوامل أدت إلى ازدياد النفوذ أو القوة، ويمكن إجمالها فيما يلى:-

١- إعطاء الفرصة لبعض حكام الأقاليم من قبل بعض الخلفاء لازديادة نفوذهم. فعلى الرغم مما عرف عن النصف الأول من العصر الفاطمى من قوة الخلفاء وضعف نفوذ حكام الأقاليم، إلا أن هذه الفترة لم تخل من وجود حكام أقاليم عرفوا بقوة نفوذهم واتساع سلطانهم، لكن الخلفاء بما لديهم من قوة كانوا لهم دائما بالمرصاد. ويذكر من هؤلاء على سبيل المثال " جبر بن القاسم" وهو من أهل المغرب الذين قدموا مع المعز، وكان من كبراء الدولة، وأماثل أهل الحضرة، وكان قد تولى الشرطتين العليا والسفلى، وتنيس ودمياط والفرما والجفار[٢]. بل وصل الأمر إلى أنه عندما خرج العزيز بالله (٣٦٥ – ٣٨٦هـ / ٩٧٥ – ٩٩٦م) إلى بلاد الشام لحرب الخارجين بها، كان جبر بن القاسم نائبه على مصر،وكانت الكتب ترد باسمه لتقرأ على المنابر[٣]. هكذا وصلت سلطة الوالى ونفوذه درجة قاربت مكانة الوزراء.

٢- إضافة وظائف أخرى إلى جانب حكم الإقليم. ففى بعض الأحيان لم يكن حاكم الإقليم مجرد والى له فقط، بل ربما تضاف إليه أمور أخرى تزيد من قوته كالحسبة مثلا[٤]. كما أنه أحيانا يحكم على أكثر من إقليم، مثل " الأوحد بن تميم" الذى تولى دمياط وتنيس وأضيفت إليه الدقهلية والمرتاحية.[٥]

٣- ضعف الخلفاء. فقد امتاز النصف الثانى من العصر الفاطمى بضعف الخلفاء وضياع هيبتهم، لأن الدولة تظل قوية متماسكة طالما كانت قبضة الحكام قوية متسلطة، لكن

---

(١) مسعود أحمد مصطفى: أقاليم الدولة الإسلامية بين اللامركزية الإدارية واللامركزية السياسية، ص ١٨٢.

(٢) ابن الصيرفى: الإشارة إلى من نال الوزارة، ص ٥٣.

(٣) د.المناوى: الوزارة والوزراء ، ص ١٤١: ١٤٢.

(٤) النويرى: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٢٧٨، المقريزى: الخطط ،ج ٤، ص ٢٦٧، اتعاظ، ج٣، ص٥٥،

(٥) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٢٢١.

إذا ركبتهم الشهوات ضعفت قبضتهم وساء تدبيرهم للأمور، فإن ذلك يؤدى إلى خروج الأمر من أيديهم.[١]

٤- غياب الرقابة. حيث منيت هذه الفترة بمجموعة من الوزراء – سلاطين الزمان – كان من بينهم من يعمل على تحقيق المصلحة الشخصية له ولأقاربه، أو التمكين لبنى جنسه، ومن ذلك ما حدث على يد الوزير بهرام الأرمنى (٥٢٩ – ٥٣١هـ / ١١٣٤ – ١١٣٦م) الذى استكثر من أهله وأقاربه حتى صار منهم بالديار المصرية نحو الثلاثين ألف إنسان، ومكن لهم حتى اشتد جورهم وعظم ضررهم بالمسلمين، وصار كل رئيس منهم يبنى له كنيسة بجوار داره [٢] ومن ذلك أيضا توليته لأخيه الباساك إمرة إقليم قوص، والذى استبد بالأمر وجار على الناس، واستباح أموالهم، وبالغ فى أذيتهم وظلمهم[٣].

٥- أحيانا تعطى الفرصة من قبل حكام الأقاليم لازدياد النفوذ واشتداد السطوة – من ذلك ما كان يحدث فى بعض الأحيان من اتخاذ الوزير من حاكم الإقليم حاميا له، ومن هذا القبيل ما فعله الوزير المأمون البطائحى وزير الخليفة الآمر (٤٩٥ – ٥٢٤هـ/ ١٠٩٤ – ١١٠١م)، الذى رأى أن يولى أخاه جانبا عظيما من ديار مصر، ويجعل معه عسكرا، ليجده ردءاً إذا قصد به الخليفة ضررا، وأنه متى دام أخوه حاميا له فيكون هو من داخل وأخوه من خارج، وجرد معه مائة من شدة الأجناد وكبرائهم[٤]. ومن هذا أيضا ما فعله بهرام الأرمنى حين ولى أخاه قوص[٥]، وذلك نظرا لمكانة قوص بين باقى الأقاليم[٦].

---

(١) مسعود أحمد مصطفى: أقاليم الدولة الإسلامية، ص ٢٨٦.

(٢) المقريزى: اتعاظ، ج ٣، ص ١٥٩.

(٣) المقريزى: السابق، نفس الجزء ونفس الصفحة.

(٤) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص١٢.

(٥) عن قوص ومكانتها انظر.د. عائشة التهامى: أضواء جديدة على بعض التحف التى عثر عليها بخفائر قوص، ص٤٧٦: ٤٧٨. القاهرة. د.ت.

(٦) عن هذا بالتفضيل انظر: النويرى: نهاية الأرب،ج ٢٨، ص ٢٧٨، المقريزى: الخطط،ج٣ ، ص١٠٨،ج ٤، ص ٢٦٧، د. سهام أبو زيد: تاريخ الأرمن، ص ١٨٠، وما بعدها.

كانت هذه أبرز العوامل التى أعطت الفرصة لحكام الأقاليم لازدياد نفوذهم، مما مكنهم من القيام بدور لا يستهان به فى الحياة السياسية – كما سيأتى. وهناك العديد من الدلائل التى تؤكد على ازدياد نفوذ حكام الأقاليم بشكل لم يحدث فى عصر من العصور من ذلك:–

١– ما خلفه بعضهم بعد وفاتهم من ثروة ضخمة تتمثل فى: مبان فخمة كالقصور والدور والحمامات، وأموال وجواهر وعبيد وخدم، وغير ذلك مما أفاض المؤرخون فى ذكره.[١]

٢– أصبح العديد من حكام الأقاليم مصدر قلق للحكومة المركزية، مما جعلها تعمل بكافة الوسائل لإسكاتهم أو الحد من نفوذهم، وفى محاولة لإضعاف هذا النفوذ وصل الأمر بالوزير طلائع بن رزيك أن حدد مدة كل متول لإقليم بستة أشهر فقط خوفا من أن يثور عليه، أو ينازعه الوزارة[٢]. كما خافهم الوزراء وصرفوا إليهم تفكيرهم، بل جعلوا للحديث عنهم جزء من وصاياهم، ومن ذلك ما حدث من قبل طلائع بن رزيك، الذى وصى ابنه رزيك بشاور وبألايخلعه أو يول عليه. حتى لا يحركه ضده.[٣]

٣– وليس أدل على زيادة نفوذ هؤلاء أن أصبحوا لا يرضخون لقرارات العزل الموجهة إليهم من الحكومة المركزية. ومن ذلك ما فعله شاور، الذى رفض أمر العزل الموجهة إليه من الوزير رزيك بن طلائع.[٤]

٤– أصبح حكام الأقاليم الملجأ لولاة العهد[٥] وأهل القصر[٦]. كما وجد من بينهم من تحكم فى اختيار الخليفة نفسه.[٧]

---

(١) د. أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية فى مصر، ص ٢١٦.

(٢) د.أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية فى مصر، ص ٢١٦.

(٣) الأزدى: أخبار الدول المنقطعة، ص٩٠.

(٤) المقريزى: الخطط، ج ٣، ص ٧٣: ٧٤، أبو الفدا: المختصر فى تاريخ البشر،ج ٣، ص٤٠.

(٥) أبو المحاسن: النجوم،ج ٥، ص١٤٤، وما بعدها.

(٦) أسامة بن منقذ: الاعتبار، ص ٢٢: ٢٣.

(٧) د. إبراهيم أيوب: النظام الفاطمى السياسى، ص١٢٩.

٥- وجد من بين حكام الأقاليم من أصبح نديما للخليفة، مع الإغداق والإكرام المستمر من الخلفاء لهم.[١]

٦- ولا أدل على زيادة النفوذ بشكل لم يسبق له مثيل أن جل وزراء النصف الثانى من العصر كانوا من بين حكام الأقاليم[٢] والذين اشتد التنافس بينهم على اعتلاء هذا المنصب، والذى أصبح من نصيب الغالب فى تلك الجولات المتصارعة[٣]. حتى وصل وصل الأمر أن أصبحت السنوات الأخيرة من عمر الدولة الفاطمية عبارة عن سلسلة من الصراعات والحروب بين حكام الأقاليم المتنافسين على منصب الوزارة والقوى الخارجية التى استعانوا بها لتعضيد مكانتهم[٤].

كانت هذه صورا حية، ودلائل واضحة تدل دلالة جلية على زيادة نفوذ حكام الأقاليم بشكل مكنهم من التدخل فى الحياة السياسية، والقيام بدور مؤثر فيها، بل ربما وصل الأمر إلى التحكم فى سياسة الدولة آنذاك، بل وتغيير اتجاهها، معتمدين فى ذلك على مراكزهم كحكام للأقاليم[٥].

العوامل التى هيأت حكام الأقاليم للتدخل فى سياسة الدولة:-

بعد التعرف على الحالة السياسية للبلاد آنذاك، ومدى ما وصل إليه ضعف الخلفاء، وأن هذا هو أول وأكبر العوامل التى أتاحت لحكام الأقاليم التدخل فى سياسة الدولة. هناك تساؤل يكاد يطرح نفسه وهو: هل كان اضطراب الحياة السياسية وضعف الخلفاء عاملا كافيا لهؤلاء للتدخل فى سياسة الدولة؟ الحقيقة أن هذا لم يكن العامل الوحيد بحال من الأحوال لقيام هؤلاء بمثل هذا الدور، وإلا أتيحت الفرصة لجميع حكام الأقاليم المنتشرين على طول البلاد وعرضها التدخل والمشاركة فى الحياة السياسية. لكن بالبحث تبين أن بعضا من هؤلاء فقط هو من تمكن من هذا وليس الجميع، وبالبحث أيضا عن هؤلاء وعن حياتهم،

---

(١) أسامة بن منقذ: الاعتبار، ص ١٩.

(٢) د. ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر، ج١، ص٩٣.

(٣) أميرة الهلف: الأوضاع الإدارية والاقتصادية فى الدولتين الفاطمية والأيوبية، ص ٨٣.

(٤) د. أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية فى مصر، ص ٢٢١.

(٥)د. إبراهيم أيوب: النظام الفاطمى السياسى، ص ١٢٩.

وما قاموا به من أعمال خلال فترة حكمهم للأقاليم، وكذلك الأقاليم نفسها التى قاموا عليها، تبين أن هناك مؤهلات وكفاءات وصفات خاصة امتاز بها هؤلاء، مكنتهم من المشاركة فى الحياة السياسية، بل وساعدتهم على تحقيق مآربهم فى هذا المجال.

فيبدو أن أكثر ما يتيح لحاكم من حكام الأقاليم أو أى شخصية أخرى للتدخل فى شئون السياسة، وسير الأمور، هو قوة شخصيته، وذكاؤه، وحسن سياسته، وبعد نظره، وما يتمتع به من نفوذ، وما إلى ذلك. وهذا ما سوف نلمسه عن قرب عند الحديث عن بعض هذه الشخصيات.

من هؤلاء على سبيل المثال الأمير" بهرام الأرمنى" حاكم إقليم الغربية فى خلافة الحافظ لدين الله (٥٢٤ – ٥٤٤هـ / ١١٣٠ – ١١٤٩م)، الذى سبق الحديث عنه وعن دخوله القاهرة وسبب ذلك، ثم وصوله إلى وزارة الخليفة الحافظ[١] بذكائه وحسن سياسته.[٢]

والآن يظهر تساؤل هام. وهو: لماذا هذا الشخص بالذات، الأرمنى الجنسية، النصرانى الديانة دون غيره من حكام الأقاليم هو الذى تمكن من القيام بهذا الدور؟ ويمكن التعرف على الإجابة من خلال استعراض ما ذكره المؤرخون عن هذه الشخصية غير العادية. فما ذكره عنه يؤكد أنه لم يكن مجرد والى لإقليم من أقاليم مصر آنذاك، ولم يكن شخصية عادية، بل كانت له عند الفاطميين مكانة كبيرة، ويشارك فى الحوادث التى تجرى فى سياسة البلاد آنذاك بما عرف عنه من حسن تدبير للأمور وبعد نظر[٣]، وعنه يقول ابن المقفع: " إنه كان عندهم – أى الفاطميين – جليلا موقرا لهم فيه رأى جميل ومحبه"[٤]، هذا فضلا عما عرف عنه من الشجاعة والإقدام، وقد أثبت هذا قديما عندما تصدى لقوة اللواتيين[٥] ونجح

---

(١) الأزدى: أخبار، ص١٦٤: ١٦٥، المقريزى: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص١٥٥: ١٥٦.

(٢) د. سهام أبو زيد: تاريخ الأرمن، ص ٧٦: ٧٧.

(٣) د. سهام أبو زيد: تاريخ الأرمن، ٧٦.

(٤) ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ج٣، ص٢٨.

(٥)اللواتيين: نسبة إلى لواته إحدى القبائل المغربية التى انتقلت إلى مصر بانتقال الفاطميين إليها، واستقرت فى الأراضى المصرية فى مناطق كثيرة منها البحيرة والمنوفية والبهنسا وغيرها. وقد اختلف فى أصل اللواتيين، كما يذكر أنهم بطون متعددة. أما عن لواته فى البحيرة فقد كانت تؤلف حلفا من سنبس والفاطميين هم الذين نقلوهم إلى البحيرة. عنهم بالتفضيل. انظر د. سهام أبو زيد: المغاربة، ص ٣٨: ٤١.

ونجح فى الإيقاع بهم[١]، هذا قبل أن يلى إمرة إقليم الغربية، أما أثناء ولايته فقد أثبت رجاحة عقل وحسن تدبير، وعنه قال ابن أيبك:" كان رجلا سليم الباطن جيدا فى نفسه[٢]". لهذه الصفات كلها طلب " الحسن بن الحافظ" مساعدته، ولهذا أيضا خرج إليه الجند مستصرخين لإنقاذهم من الفتنة التى حلت بالبلاد، من جراء ما فعله الحسن، واستيلاء السودان على القاهرة[٣]. ولهذا أيضا استوزره الخليفة الحافظ رغم كونه نصرانيا، إذ يذكر" أنه وجد منه العقل الوافر، والإقدام فى الحرب، والسياسة وحسن التدبير"[٤] ولاقتناعه بكفاءته[٥]. ولكل هذا تمكن من القيام بما قام به. وإن كانت قد ظهرت له الكثير من السلبيات والمآخذ أثناء وزارته[٦].

كذلك أتيحت الفرصة لحاكم آخر من حكام الأقاليم للقيام بدور فى سياسة الدولة، وهو الأمير " رضوان بن ولخشى" حاكم إقليم الغربية فى عهد الحافظ لدين الله ووزارة بهرام (٥٢٩: ٥٣١هـ ١١٣٤ – ١١٣٦م)، والذى لجأ إليه الأمراء والناس لإنقاذهم من عسف وظلم بهرام[٧]. بل ويذكر أن الخليفة الحافظ نفسه كتب له بالمسير إلى القاهرة لإنقاذ الموقف[٨].– مع كونه مسلما سنيا– وما كانت هذه الاستغاثات كلها إلا لما عرف عن رضوان من الشجاعة والإقدام[٩]، وكذلك الشدة والقوة التى جعلته يلقب " بفحل الأمراء"[١٠]. كما يذكر أنه: " لم يكن بمصر فى زمانه من هو أشجع منه، ولا أشد منه بأسا، وأربط جأشا وأثبت قلبا"[١١]، وعنه يقول المقريزى: أنه كان " سنيا حسن الاعتقاد شجاعا،

(١) المقريزى: اتعاظ، ج ٣، ص ٩٧.
(٢) ابن أيبك الدوادارى: الدرة المضية، ص ٥١٤.
(٣) الدوادارى: نفسه، ص ٥١٤: ٥١٥.
(٤)ابن ميسر: أخبار، ص ١٢٣، الدوادارى: السابق، ص ٥٠٧، ٥١٥، ٥١٨.
(٥) أمينة إمام الشوربجى: رؤية الرحالة المسلمين، ص ٥٠٦.
(٦) لمزيد من التفضيل. انظر .د. سهام أبو زيد: تاريخ الأرمن، ص ٧٨: ٨٢.
(٧) ابن ميسر: أخبار، ص ١٢٤.
(٨) المقريزى: اتعاظ، ج ٣، ص ١٥٩، د. سلام شافعى: أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الثانى، ص٥٩.
(٩)ابن ميسر: أخبار، ص ١٢٤.
(١٠) المقريزى: اتعاظ، ج ٣، ص ١٤٠.
(١١) المقريزى: اتعاظ،ج٣، ص١٨٤.

مقداما، قوى القلب، شديد البأس....."[١]، وقد ثبت هذا منذ أن خاف بهرام وجوده بالقاهرة، فولاه عسقلان، وهناك نجح فى رد ومناكدة جماعة من الأرمن من أتباع بهرام، كانوا يتواصلون فى البحر يريدون مصر[٢]، بدعوة من الوزير بهرام الذى استكثر منهم حتى صار بمصر منهم عالم عظيم[٣]، لذا شكره الناس على فعله[٤]. كما وجدوا فيه النصير لهم من ظلم وتسلط بهرام وكذلك أهله وأقاربه، لذا اختصوه بطلب النجدة على هؤلاء. وبهذه الصفات نجح رضوان فى الوصول إلى ما هدف إليه.

وهناك أيضا "على بن السلار" حاكم الإسكندرية فى عهد الخليفة الظافر، والذى تمكن من الوصول إلى الوزارة بعد طرد " ابن مصال" منها، وذلك بمساعدة ربيبه " عباس بن أبى الفتوح ابن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى" أمير الغربية، وقد نجح ابن السلار فى تحقيق هدفه نظرا لما عرف عنه من إقدام، وشجاعة وحزم، وعزوف نفس عن اللهو والخلاعة.[٥]

وكان ممن تمكن منهم أيضا من القيام بدور مؤثر فى سياسة الدولة وصل إلى قتل الوزير، بل الخليفة نفسه الأمير " نصر بن عباس" والى الفسطاط، والذى قام بهذا الدور لا لقوة شخصيته، أو حسن سياسته، أو غير ذلك من المؤهلات الشخصية، بقدر ما كان اعتمادا على قربه من الخليفة، وصلته بالوزير، فقد كان الوزير " ابن السلار" زوج جدة هذا الوالى، فكان أن تمكن من الوصول إليه وقتله. بحجة دخوله بيت جدته[٦]. كما تمكن من الدخول على الخليفة الظافر وقتله معتمدا فى ذلك على ما تمتع به من مكانه عند هذا الخليفة سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م[٧].

---

(١)الأزدى: أخبار الدول، ص ١٦٨.
(٢) ابن ميسر: أخبار، ص ١٢٤، المقريزى اتعاظ، ج٣، ص ١٥٨.
(٣) المقريزى: اتعاظ ، ج ٣، ص ١٥٦.
(٤) ابن ميسر: أخبار، ص ١٢٤.
(٥)ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص ٥٧: ٥٨.
(٦) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص٦١: ٦٢.
(٧) أسامة بن منقذ: الاعتبار، ص ١٩.

وعندما ضاق الأمر بأهل القصر من جراء ما حدث لأبناء الخلافة على يد " نصر بن عباس" والى الفسطاط، وأبيه " عباس" الوزير أخذوا يبحثون عن نصير لهم، فوجدوا النصير فى أحد حكام الأقاليم آنذاك وهو " طلائع بن رزيك" والى إقليم منية بنى الخصيب[١]، فأرسلوا إليه كتبا وسألوه الانتصار لمولاه، وقصوا الشعور وسيروها فى طى الكتب[٢]، ومما لا شك فيه أن اختصاص أهل القصر هذا الوالى بالذات بتلك الاستغاثة لم يأت من فراغ، فقد عرف عن طلائع القوة والسطوة، تلك التى ظهرت منذ أن كان واليا للبحيرة قبل ولايته لمنية بنى الخصيب، عندما نجح فى حرب طائفة من اللواتيين وهزمهم وقتل مقدمهم[٣]، كما قام على ولايتها خير قيام[٤]. وعنه يقول ابن الوردى " كان شهما[٥]". ويقول الأزدى: " لأنه كان كان قريبا منهم"[٦] ويرجح أن القرب هنا لم يقصد به القرب المكانى، وإلا لكانت هناك أقاليم أقرب بكثير من " المنيا"، وإنما يقصد بهذا القرب الإحساس بالأمان، خاصة وأنه تقلب فى الوظائف والولايات قبل أن يصل إلى " منية بنى الخصيب". كما يذكر عنه المقريزى قوله: " كان رجلا وقته فضلا وعقلا وسياسة وتدبيرا، وكان مهابا فى شكله عظيما فى سطوته"[٧] ويقول أيضا" وكان وافر العقل، رضى النفس، بصيرا بالتجارب، عالما بأيام الناس، بصيرا بالعلوم الأدبية، محببا إلى الناس لإظهاره الفضل، وإنكاره الظلم والفساد"[٨]. كما يذكر أنه كان " شجاعا حازما مدبرا جادا صادقا فى عزيمته قوى الشكيمة"[٩]. كانت هذه كلها صفات أهلت الصالح " طلائع بن رزيك" لأن يكون محل استغاثة أهل القصر، كما أنها مكنته من أن يقوم بالأمر خير قيام، ويكون عند حسن ظنهم.

---

(١) ابن الوردى: تاريخه، ج٢، ص٥٥، القلقشندى: صبح ،ج٣، ص٢٧١.
(٢) الأزدى: أخبار، ص١٧٧.
(٣) ابن ميسر: أخبار، ص١٣٥.
(٤)د. سهام أبو زيد: تاريخ الأرمن، ص ١٠٨.
(٥)ابن الوردى: تاريخه، ج٢، ص ،٥٥ د. حسين نصار: النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة، ص ٩١.
(٦) الأزدى: أخبار، ص١٧٧.
(٧) المقريزى: الخطط، ج ٣، ص ١٨.
(٨) المقريزى: اتعاظ، ج ٣، ص ٢٤٩.
(٩) د. سهام أبو زيد: تاريخ الأرمن، ص ٩١. نقلا عن الزركلى: الإعلام ، ج٣، ص٣٣٠.

وهناك شخصية أخرى تمكنت من أن تلعب دورا لا يستهان به فى سياسة الدولة، بل كانت طرفا من الأطراف التى تسببت فى نهاية الدولة، وجرت عليها الوبال، وهو " شاور بن مجير السعدى" حاكم إقليم قوص من قبل الصالح طلائع بن رزيك (٥٥٦هـ/ ١١٦٠م)، هذه الشخصية القوية، التى عرف بنو رزيك قوتها وأدركوا مدى خطورتها جيدا، وخافوها على ملكهم ومما يذكر أن الأمير" عز الدين حسام" تباسط مرة مع عمارة اليمنى وقال له: " ما أخاف على ملكنا إلا من شاور لا غير"[١] وذلك لما عرف عنه من قوة وشدة دون غيره من حكام الأقاليم المعاصرين له آنذاك، الأمر الذى أدى بالصالح أن ندم على اختياره لشاور واليا على الصعيد، لكنه لم يستطع إدراك الأمر[٢] فى وقتها، فأوصى ابنه رزيك وهو على فراش الموت بألا يعزل شاور، ولا يغير عليه مغيرا، لأن ذلك سيؤدى إلى تحريكه عليه[٣]. إلا إلا أن رزيك لم يكن من الحزم بحيث ينفذ الوصية، حيث قام بعزل شاور وتولية غيره، ودون الاستماع لنصيحة من نصحه بإبقائه فى مكانه[٤]. ولم يكن كل هذا من فراغ، بل إن هذه الشخصية كانت قد أثبتت قوتها وشجاعتها وإقدامها من قبل، أثناء محاربته الخارجين على الصالح[٥]. ومع إصرار العادل " رزيك بن طلائع" على عزل شاور وتولية غيره، فإنه قد جر عليه الوبال وعلى بنى رزيك جميعا، حيث كان هذا إيذانا بزوال دولة بنى رزيك، بل بداية النهاية لدولة الخلفاء الفاطميين بمصر، وما كان هذا إلا لما تمتعت به هذه الشخصية من صفات مكنته من تحقيق مآربه وأهدافه.

وأحيانا يتمكن حاكم الإقليم من القيام بدور مؤثر فى سياسة الدولة، لا اعتمادا على شخصيته هو، بل اعتمادا على مكانة الإقليم الذى يلى إمرته دون غيره من الأقاليم، فقد ذكر أن عددا من حكام الأقاليم تمتعوا بسلطات أوسع من غيرهم، نظرا لأهمية أقاليمهم بالنسبة للدولة، والهدف المراد لهذا الإقليم أن يحققه للدولة[٦]. وينطبق هذا الوضع الهام على إقليم

---

(١) عمارة: النكت، ص ١١١.

(٢) أبو المحاسن: النجوم، ج ٥، ص ٣١٥.

(٣) الأزدى: أخبار، ص ١٨١، النويرى: السابق، ص ٣٢٧، المقريزى: اتعاظ، ج ٣، ص٢٥٤.

(٤)المقريزى: اتعاظ، ج ٣، ص ٢٥٤ ، أبو المحاسن: النجوم، ج ٥، ص ٣١٦.

(٥) عمارة: النكت، ص ٧٣.

(٦) مسعود أحمد مصطفى: أقاليم الدولة الإسلامية، ص ٢٧٩.

إقليم قوص، والذى كان منبعا – بين الحين والآخر – للثورات والقلاقل التى يهدف القائمون بها على الاستئثار بالحكم خروجا على السلطة القائمة فى العاصمة، حيث يذكر أن مناطق الإقليم أصبحت مصدر قلق سياسى، ومنبع لسلسلة من الأحداث المتعاقبة التى أراد أصحابها التأثير فى سياسة الدولة، أو حتى تغييرها بالكلية "[1] وما كان هذا إلا لزيادة مكانة قوص كإقليم ذى صفات مميزة له عن غيره من الأقاليم الأخرى، تلك التى وصفت ولايتها بأنها أكبر المناصب بعد الوزارة[2].

وهكذا أتيحت الفرصة لبعض حكام الأقاليم للقيام بدور مؤثر وفعال فى سياسة الدولة، معتمدين فى ذلك على مؤهلات وعوامل خاصة، منها ما يتصل بشخصية الحاكم نفسه، أو الظروف المحيطة به، أو مكانة الإقليم وأهميته بالنسبة لأقاليم مصر فى تلك الفترة التاريخية.

دور حكام الأقاليم فى مجال السياسة

أولا: فى السياسة الداخلية:–

شهدت الدولة الفاطمية طيلة عهدها بمصر العديد من الثورات وحركات التمرد على طول البلاد وعرضها، التى هدفت إلى التأثير فى سياسة الدولة، والتى كان لحكام الأقاليم دور مؤثر فيها، إما بالسلب أو الإيجاب، فهم كانوا إما قوادا لهذه الحركات بهدف الوصول لغرض معين، كالاستقلال بها مثلا، أو لتحقيق أغراض شخصية، وإما بهدف الحماية للدولة والحفاظ على كيانها.

ومن هذا ما حدث فى بداية عصر الدولة بمصر، حيث قامت العديد من الثورات وحركات التمرد من قبل حكام بعض الأقاليم، فى محاولة للتأثير على هذه الدولة الجديدة، أو حتى الإطاحة بها وهى فى البداية – من هذه المحاولات على سبيل المثال: ما حدث سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م من ثورة عارمة بقيادة الأمير"تبر الإخشيدى" [3]والى إقليم

---

(١) محمد خليل أحمد هميمى: قوص من الفتح العربى حتى نهاية عصر المماليك، ص ٣١.

(٢) عن مكانة إقليم قوص انظر د. عائشة التهامى: أضواء جديدة على بعض التحف التطبيقية التى عثر عليها بخفائر قوص، ص ٥٧٦: ٥٧٨.

(٣) عنه بالتفصيل. انظر. المقريزى: المقفى الكبير، ص ٢١٧.

"البشمور"[١] الذى قام هادفا الإطاحة بالفاطميين وإعادة الحكم الإخشيدى، وقد كادت هذه الثورة أن تطيح بالدولة فى بداية عهدها[٢]، لذا حاول جوهر الصقلى استعطاف هذا الأمير إلا أنه فشل[٣]، وعن هذه الثورة يقول ابن المقفع: " وكان من جملة الإخشيدية أستاذ يقال له تير، كان والى البشمور وهو الذى بنى المسجد بظاهر القاهرة، فمنع جميع البشامرة أن يدفعوا جوالى، وحملهم على ألا يطيعوا جوهر، وقال لهم ساعدونى وأنا أحمى بلادكم وأوفر عليكم الخراج، فتبعه جمع كبير فلما بلغ الملك المعز خبره عند وصوله إلى مصر، أنفذ إليه عسكراً، فلما رأوا البشامرة العسكر، تشاوروا فيما بينهم، وقالوا كيف نفسد نحن الملك ولا نأمن ما يكون منه، ثم إنهم تفرقوا، كل واحد منهم إلى موضعه، فهرب ذلك البايس تير إلى دمياط وتبعه العسكر، فركب مركب وهرب إلى فلسطين، ودخل يافا فقبضوه هناك– فقتل وسلخ جلده – فملوه تبن وصلبوه على خشية "[٤]. وكما هو واضح من النص أن هذه الثورة كانت قوية وتضم أعداداً غفيرة وكانت تهدف إلى الإطاحة بالملك، وقد استمرت حتى مجيء المعز الذى رصد لها العسكر حتى تم القضاء عليها والإطاحة بصاحبها.

وفى عهد العزيز بالله (٣٦٥– ٣٨٦هـ / ٩٧٥ – ٩٩٦م) وبالتحديد سنة ٣٦٨هـ / ٩٧٨م، والدولة فى قوتها، قام حاكم أسوان بثورة عارمة محاولا الاستقلال بها عن الدولة، وعنها يقول المقريزى: " وفيها – يعنى سنة ٣٦٨هـ – نافق حمزة بن ثعلبة الكتامى متولى أسوان "[٥]. ويذكر أن " حمزة بن ثعلبة " تولى أسوان أيام المعز لدين الله، فاستطاع أن يفرض سيطرته عليها، ويكون له أنصار بها، وبعد وفاة المعز لدين الله، اشتد ساعد حمزة،

---

(١) البشمور: هذا الاسم كان يطلق على إقليم من أخصب الأقاليم فى شمال مصر، شرقى الدلتا، وبالبحث عن الموقع تبين أنه كان يشمل منطقة الأراضى الزراعية التى تقع اليوم بين فرع النيل الشرقى وبين البحر الصغير بمديرية الدقهلية وذلك فى المسافة الواقعة على فرع دمياط بين محلة إنشاص وقرية السرو بمركز فارسكور، وفى المسافة الواقعة على البحر الصغير بين قرية القال الكبرى، وقرية برمال القديمة بمركز دكرنس. محمد رمزى: القاموس، ق١، ص٣٢.

(٢) عن هذه الثورة وأسبابها وأحداثها بالتفصيل. انظر. محمود خلف: الثورات وأثرها على الحياة فى العصر الفاطمى، ص ٥٦: ٥٧.

(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ج ١، ص ١٢٢، المقفى، ص ٢١٧.

(٤) ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ج٢، ص ٧٣.

(٥) المقريزى: اتعاظ ،ج١، ص ٢٤٥ : ٢٤٦.

وأعلن الثورة ضد العزيز، مستغلا بعد المسافة بين أسوان ومركز الخلافة بالقاهرة، كما أغراه بذلك انشغال العزيز فى حروبه فى بلاد الشام، وكان هدفه هو الاستقلال بما تحت يده من البلاد، فجهز إليه العزيز جيشا كبيرا استطاع أن يقضى على الثورة، ويأخذ قادها أسيرا إلى القاهرة، ومعه كل أمواله وجواهره وسائر ما يملك، وأمر العزيز بقتل "حمزة بن ثعلبة" وبهذا تخلص العزيز من عدوه، وعاد بعدها الأمن والهدوء إلى جنوب مصر(١).

وقد سجل التاريخ والمؤرخون القدامى أدوارا لبعض حكام الأقاليم الذين حرصوا على الحفاظ على أمن وسلامة الدولة، وحمايتها من أعدائها الخارجين عليها، ومن ذلك ما حدث فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله، وبالتحديد سنة ٣٩٦هـ / ١٠٠٥م، من خروج "الوليد بن هشام" المعروف " بأبى ركوة "(٢) على الفاطميين ومحاولة الإطاحة بهم. حيث نجح أن يجمع حوله الكثير من الأتباع والناقمين على الحاكم، ووصل الأمر أن خلعوا طاعته، فدعى لنفسه بالخلافة، وفعلا أخذ البيعة لنفسه، فندب إليه الحاكم عسكرا كثيفا، إلا أنه نجح فى هزيمتهم بالإسكندرية، وتوالت انتصارات أبى ركوة وضمه للبلاد وفشلت كل محاولات الإيقاع به، فاضطربت الأحوال والأقاليم، وخاف الناس وضاق بهم الحال من كثرة ما أوقع بهم، فكان أن لجأ الحاكم للحيلة للإيقاع بأبى ركوة، وفعلا تم هذا(٣). وشهر على جمل وألبس طرطوراً وخلفه قرد بيده درة يصفعه بها طيف به البلاد إلى أن وصل إلى مسجد تبر وهناك ضرب عنقه وصلب جسده وحملت رأسه إلى الحاكم(٤). وذلك بعد نجاحات فاقت الحد مكنته من السيطرة على أجزاء كبيرة من البلاد. بل وجعلته قادرا على الإطاحة بحكم الفاطميين فى مصر.

---

(١) محمود خلف: الثورات وأثرها على الحياة، ص ٨٧: ٨٨.

(٢) أبو ركوة: ادعى أنه الوليد بن هشام بن عبد الملك بن عبد الرحمن الأموى، وتلقب بالثائر بأمر الله، والمنتقم من أعداء الله، وكان مولده بالأندلس، ونشأ بها ثم خرج منها بحال سيئة، يجوب البلاد إلى أن وصل القيروان، ففتح فيها مكتبا لتعليم الصبيان فيه القرآن، ثم توجه منها إلى الإسكندرية ومنها إلى مصر فأقام بها وبأريافها يعلم الصبيان، ثم توجه إلى الفيوم وعلم الصبيان بها أيضا، وعاد إلى مصر، وبعدها أخذ يتنقل فى البلاد ويجمع الأتباع والخارجين على الفاطميين إلى أن تصدى له الفاطميون وأطاحوا به.ويكنى بأبى ركوة لركوة كان يحملها فى أسفاره النويرى: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٨٠: ١٨١.

(٣) النويرى: السابق، ص ١٨٠: ١٨٣، المقريزى: اتعاظ، ج٢، ص٦٠ :٦٥.

(٤)المقريزى: اتعاظ، ج ٢، ص ٦٥.

وبعد التعرف بشكل سريع على هذه الثورة وقوتها، فما يهمنا هنا هو دور أحد حكام الأقاليم فى هذه الثورة. مما هو جدير بالتسجيل أن المساعد الأول فى الإيقاع بأبى ركوة هو حاكم إقليم أسوان الشيخ " أبو المكارم هبة الله " شيخ بنى ربيعة[١]، وذلك عندما توجه أبو ركوة إلى الصعيد فى انتظار المدد[٢]، وأبو المكارم هذا هو حاكم الصعيد الذى منحه الحاكم بأمر الله لقب " كنز الدولة " مكافأة له، وهو أول من لقب به، ولم تزل الإمارة فيهم، وكلهم يعرفون بكنز الدولة[٣]. وبهذا أتيحت الفرصة لهذا الحاكم أن يلعب دورا فى سياسة الدولة وذلك بالقضاء على خطر داهم هدد كيانها، وكان أن يطيح بها، فكان أن اعترف له الخليفة بهذا الفضل، وكافأه على أعماله. لكن هذا الدور لم يستمر طويلا إذ سرعان ما تبدل الوضع فى عهد المستنصر. كما سيأتى.

مثل آخر على ذلك الدور ما حدث سنة ٤١٥هـ / ١٠٢٤م حينما قامت ثورة عارمة بالصعيد، ويذكر أن قائدها الذى ينتمى لبنى الحسين[٤] قد نجح من قبل فى قتل الحاكم بأمر الله، ثم اتجه إلى الصعيد[٥]، وجمع حوله كثيراً من الثوار المعارضين للخلافة الفاطمية، وتحالف مع قبائل بنى هلال وبنى كلاب وبنى قرة والجهاينة وغيرهم[٦]. ممن خلعوا طاعة الفاطميين، وانضموا لهذا الثائر. ويمكن إيجاز أسباب هذه الثورة فيما يلى:

١- الطموح الشخصى عند هذا الثائر الذى طمع فى الخلافة إعتمادا على نسبة الشريف، تحالفه مع القبائل العربية الناقمة على الخلافة الفاطمية.

٢- اضطراب أحوال الدولة آنذاك بسبب المجاعات التى اجتاحت أراضى الخلافة، واضطراب الأمن، وقيام العبيد بالثورات ونهبهم الفسطاط والقاهرة.[٧]

---

(١) النويرى: السابق، ص ١٨٣.

(٢) د. ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها، ص ٢٥١.

(٣) عن بنى الكنز وأصلهم انظر د. عطية القوصى: بنو الكنز دراسة تاريخية، ص ٤٦، وعن علاقتهم بالدولة انظر محمد خليل هميمى: قوص من الفتح العربى، ص ٣٠: ٣٦.

(٤) المقريزى: الخطط، ج ٢، ص ١٦٨.

(٥) المقريزى: اتعاظ، ج٢، ص ١٤٠.

(٦) المسبحى: أخبار، ص ٤٠.

(٧) النويرى: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٢٠٦.

٣- بعد الصعيد عن مقر الخلافة،وصعوبة وصول الجيش والإمدادات إليه، فضلا عن ضعف شخصية وإليها آنذاك " حيدرة بن نقيان ".

وفعلا قامت الثورة واتسع نفوذ الثوار، ولم يستطع " حيدرة " أمير المنطقة آنذاك القضاء على الثورة، فطلب الإمدادات من القاهرة. وإحساسا من حكومة الخلفاء الفاطميين بخطورة الثورة أرسلت إليه الإمدادات على الفور، ونجح فعلا الوالى فى تنظيم صفوفه، وخاض المعركة، واستطاع أن يقضى على الثورة وعلى قائدها(١). الذى اعترف أنه قتل الحاكم بأمر الله فى جملة أربعة أنفس تفرقوا فى البلاد. ولما سئل لم قتلته؟ قال غرت لله وللإسلام. ولما سئل كيف قتلته؟ أخرج سكينا فضرب بها فؤاد نفسه. فمات بعدما قال هكذا قتلته.(٢) هكذا نجح أحد حكام الأقاليم فى الانتقام للخليفة المقتول، والحفاظ على الدولة وكيانها من ثورة عارمة، كانت قادرة على الإطاحة بها.

وإذا كان بنو الكنز قد نجحوا من قبل فى الدفاع عن الدولة، والحفاظ على كيانها فى عهد الحاكم، عندما تصدوا " لأبى ركوة ". فإن الأمر سرعان ما انقلب فى عهد المستنصر بالله. مستغلين فى ذلك الظروف التى إنتابت البلاد من جراء الشدة المستنصرية، والحروب والاضطرابات التى انتشرت على طول البلاد وعرضها. وذلك عندما طمع كنز الدولة فى إمارته (أسوان) وأراد الاستقلال بها سنة ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م وفعلا نجح فى التغلب عليها وعلى نواحيها وكثر أتباعه(٣)، ونجم أمره، ولما وصل الخبر لأمير الجيوش" بدر بدر الجمالى " زحف إليه وإلى أتباعه فى عسكر كثيف، فالتقى معهم وحاربهم حربا طويلة، أسفرت عن قتل كنز الدولة وهزيمة أصحابه(٤)، وبنى فى مكان المعركة مسجدا سماه مسجد

---

(١) عن هذه الثورة بالتفصيل انظر، محمود خلف: الثورات وأثرها على الحياة، ص ٢٠٢: ٢٠٣.

(٢) المسبحى: أخبار، ص ٤٨، المقريزى: اتعاظ ج٢ ص ١٤٠، د. سهام أبو زيد: المغاربة، ص ٧٩: ٨٠.

(٣) ابن ميسر: أخبار، ص ٢٥.

(٤)المقريزى: اتعاظ الحنفا، ج ٢ ، ص ٣١٦.

مسجد النصر[١] تخليدا لذكرى انتصاره[٢]، ويحد المقريزى سنة وفاة كنز الدولة لسنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م[٣].

وفى سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م قام حاكم الإسكندرية بثورة عارمة، فى محاولة للاستيلاء عليها والاستقلال بها عن باقى أجزاء الدولة[٤]. وهو الأمير " الأوحد " الابن الأكبر لأمير الجيوش بدر الجمالى، وكان سبب خروجه أن أباه عهد بالوزارة من بعده لأخيه الأصغر الأفضل، متجاهلا الأوحد الابن الأكبر[٥]، وانضم إليه فى حركته هذه جماعة من العسكر والعربان، وتحصن بالإسكندرية[٦]. ويذكر ابن المقفع سبب خروجه بقوله: " أن رجلا رجلا يعرف بجمال الدولة طعان كان يصحب الأوحد، وهو الذى أفسد رأى الأوحد فى أبيه، وحسن له أن يعصيه وينافق عليه، ففعل ذلك، وأظهر النفاق وجاهر به"[٧].

فكان أن أرسل إليه أمير الجيوش" أبا الفرج المغربى " – أحد الوزراء السابقين الذى قام بدور الوساطة بين المستنصر وبدر الجمالى لحضوره إلى مصر أيام الشدة – لإقناعه بالرجوع عن قصده، فلم يلتفت إليه. ثم سير إليه أمير الجيوش أخاه الأفضل الذى حاول ملاطفته، لكن دون جدوى[٨]، فجمع بدر الجمالى عسكره وخرج بنفسه إلى الإسكندرية، وحاصرها عدة أشهر إلى أن تمكن من الإيقاع بولده وأخذه أسيرا[٩]، وأمر ببناء جامعه المعروف " بجامع العطارين " وذلك من أموال أخذها من أهل البلد، وأقيمت فيه الجمعة واستمرت إلى أن زالت دولة الخلفاء الفاطميين بمصر على يد صلاح الدين[١٠].

---

(١) النويرى: السابق، ص ٢٣٧، ويعرف هذا المسجد باسم الجامع العتيق العمرى وتشير اللوحة التذكارية لإنشاء هذا الجامع والمكتوبة بالخط الكوفى، والتى وجدت على يمين محرابه إلى أن أساس وضعه فى سنة ٤٦٩هـ وهذا التاريخ يوافق تاريخ هزيمة كنز الدولة على يد بدر الجمالى د. عطية القوصى: بنو الكنز دراسة تاريخية، ص ٥٦: ٥٧.

(٢) محمد خليل هميمى: قوص من الفتح العربى، ص ٣٩.

(٣) المقريزى: اتعاظ، ج ٢، ص ٣١٦، بينما يذكرها النويرى سنة ٤٧٥هـ: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٢٣٧.

(٤) محمود على على بشر: الدولة الفاطمية فى مواجهة تمرد الجند والأمراء، ص ٧٤.

(٥) الأزدى: أخبار، ص ١٤٧.

(٦) النويرى: السابق، ص ٢٣٨، المقريزى: اتعاظ، ج ٢، ص ٣٢١.

(٧) ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ج٢، ص ١٨٢.

(٨) ابن المقفع: السابق، نفس الجزء، والصفحة.

(٩)الأزدى: أخبار، ص ١٤٧.

(١٠) المقريزى : اتعاظ ، ج٢، ص٣٢١.

ومهما يكن من أمر، فإنه على الرغم من أن قائد هذه الحركة – حاكم إقليم الإسكندرية – لم يتمكن من تحقيق ما هدف إليه، فإن حركته قد أقلقت بالفعل الحكومة المركزية، وكلفتها الكثير من الوقت والمال والرجال، حتى تم القضاء عليها، حفاظا على كيان الدولة وتماسكها ووحدتها.

ومن بين حكام الأقاليم الذين لعبوا دورا لا يستهان به فى سياسة الدولة، هو الأمير ناصر الدولة إفتكين" أحد مماليك أمير الجيوش " بدر الجمالى " الذى ولاه الإسكندرية قبل وفاته[١]، وقد قام هذا الأمير بدور رئيس فى تنصيب الأفضل بن أمير الجيوش وزيرا بعد وفاة وفاة أبيه سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م. وينقل ابن ميسر رواية تاريخه مؤداها: " أنه بعد أن أعلن فى مصر وفاة بدر الجمالى، طمع بعض الأمراء من غلمانه فى تولية الوزارة، فذهبوا إلى الخليفة المستنصر يتقربون إليه ليولى أحدهم هذا المنصب الكبير فى الدولة، فأسرع الأمير لاوون بالاتفاق مع جماعة من الأمراء ورشاهم بالأموال ليوافقوا على ترشيحه للوزارة، فتم لاوون الأمر، وخلع عليه الوزارة وجلس فى الشباك، فلما بلغ ذلك ناصر الدولة إفتكين، اجتمع بالأمراء الذين قبلوا رشوة لاوون. ووبخهم على فعلهم، وقال لهم. كيف يكون لكم ذلك مع وجود أولاد سيدكم، وما زال بهم حتى رجعوا عن ولاية لاوون فعظم ذلك على المستنصر وخواصه، وتبادل معهم أطراف الحديث، وحاول أن يقنعهم بعدم الرجوع عن هذا الموقف بقوله: " إذا أقمنا قضية امتثل أمرنا " ولكنهم ردوا عليه بجرأة بالغة فقالوا " إذا أقمت هذه القضية قطعناها بهذه السيوف، وجردوا سيوفهم فآثر المستنصر السلام وأمر بإحضار الأفضل ورتبه مكان أبيه "[٢] وهكذا تمكن هذا المملوك الأرمنى حاكم إقليم الإسكندرية من تنصيب الأفضل بن أمير الجيوش وزيرا وبالرغم من عدم موافقة الخليفة المستنصر نفسه.

لكن إذا كان افتكين قد نجح فى توصيل ابن سيده لمنصب الوزارة، فإنه سرعان ما نشب الخلاف بينهما بعد عدة أشهر، وذلك عندما توفى المستنصر بالله الفاطمى فى ١٨

(١) ابن ميسر :أخبار ، ص ٢٦١، النويرى : نهاية الأرب، ج٢٨، ص ٢٤٥، د. سهام أبو زيد : تاريخ الأرمن ، ص ١٠٦.
(٢) ابن الميسر: أخبار، ص ٥٤، المقريزى" اتعاظ، ج ٢، ص ٣٣١: ٣٣٢.

ذى الحجة سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م، فحينئذ بادر الأفضل بن بدر الجمالى بتنصيب طفل يدعى[١] أبا القاسم أحمد بن المستنصر ولقبه بالمستعلى وذلك دون أخيه الأكبر نزار[٢]، الذى كان المستنصر قد عهد إليه بالخلافة من بعده[٣] لكن الأفضل لم يرض بذلك ونصب المستعلى، ثم سير إلى الأمير نزار والأمير عبد الله والأمير إسماعيل أولاد المستنصر فجاءوا إليه، فإذا أخوهم أحمد وهو أصغرهم قد جلس على سرير الخلافة، فامتعضوا لذلك وشق عليهم، فأمرهم الأفضل بتقبيل الأرض له ومبايعته، بحجة أن الخليفة قد عهد إليه قبل وفاته، فامتنعوا[٤]. وبادر " نزار" وأخوه " عبد الله " ومعهم الأمير " ابن مصال " إلى الإسكندرية. وكان القائم بأمرها الأمير " ناصر الدولة إفتكين "[٥] وعرفوه الحال، ووعدوه بالوزارة، فبايعه هو وأهل الإسكندرية ولقب بالمصطفى لدين الله[٦]. فخرج الأفضل بعسكره إلى الإسكندرية لقتال نزار وإفتكين، وذلك فى أواخر المحرم سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م لكن نجح افتكين فى إيقاع الهزيمة بالأفضل[٧]، الذى رجع بمن معه إلى القاهرة، ونهب نزار بمن معه أكبر البلاد بالوجه البحرى، وأخذ الأفضل فى التجهز ثانية لقتال افتكين، ودس إلى جماعة ممن معه من العربان واستمالهم عنه، ثم خرج إليه ثانيا، فكانت بينهما واقعة بظاهر الإسكندرية، انهزم فيها نزار بمن معه، وتقهقروا إلى داخل البلد، فحاصرهم الأفضل حصارا شديدا فلما كان فى ذى القعدة واشتد الحصار جمع ابن مصال ماله وفر إلى جهة المغرب[٨]. ولما فر "ابن مصال" ضعفت قوى "نزار وإفتكين" وخافا، وطلبا من "الأفضل" الأمان فأمنهما، ودخل البلد، وقبض

---

(١) ابن ميسر: السابق، ص ٦٠.

(٢) اختلف المؤرخون فى ذكر الأسباب التى حدت بالأفضل إلى الإقبال على اتخاذ هذه الخطوة. وهى ترجع للعلاقات المتوترة بين الأفضل ونزار لعدة أمور: عنها انظر د. سهام: تاريخ الأرمن، ص ٦١: ٦٣ .

(٣) الأزدى: أخبار، ص ١٥٣، المقريزى: اتعاظ، ج٣، ص١٩، ابن أيبك: الدرة المضية، ص ٤٤٣.

(٤) النويرى: السابق، ص ٢٤٤، المقريزى: الخطط، ج٢، ص ٢٧٦: ٢٧٧، وهذا بخلاف من قال بأنهم بايعوا. انظر أبو المحاسن: النجوم ،ج ٥، ص ١٤٢.

(٥) يذكر البعض أن نزار اختار إفتكين بالذات لأنه كان مولى للمستنصر وليس لبدر الجمالى أبو المحاسن: النجوم، ج ٥، ص ١٤٣.

(٦) ابن ميسر: أخبار، ص ٦٠: ٦١.

(٧) الأزدى: أخبار، ص ١٥٣.

(٨) وكان سبب فرار ابن مصال أنه رأى فى النوم كأنه راكب فرسا، وسار والأفضل يمشى فى ركابه، فقال له المعبر، الماشى على الأرض أملك لها، فكان ذلك سببا فى فرار ابن مصال. ابن ميسر: أخبار، ص ٦٢ ، النويرى: السابق، ص ٢٤٥: ٢٤٦.

على " نزار وإفتكين "، وسيرهما إلى القاهرة[١]. فأما "نزار" فإنه قتل فى القصر بأن أقيم بين حائطين بنيا عليه فمات بينهما، وأما "إفتكين" فقد قتله الأفضل بعد قدومه[٢]. وأما " ابن مصال اللكى " – الذى ينسب لبلدة "لك" من نواحى برقة بين الإسكندرية وطرابلس الغرب– فقد كاتبه الأفضل ورغبه فى العودة، فعاد إلى مصر وأكرمه الأفضل بعد قدومه[٣]. وأما أهل الإسكندرية، فقد انتقم منهم الأفضل انتقاما شديدا لتأييدهم لنزار ومبايعتهم له، ويبدو أن انتقامه كان شديدا لدرجة أنه قتل عددا من علمائها، فتعطلت الشعائر الدينية، ولم تقم الجمعة فى مساجدها[٤].

وهكذا قام" إفتكين" أمير الإسكندرية بدور فعال فى حماية ولى العهد، ومحاولة إيصاله إلى حقه، حتى لو كان يهدف من وراء ذلك أن يلى الوزارة هو لنزار فيما بعد إذا تم هذا الأمر، وعلى الرغم من فشل محاولته، فإن التاريخ قد سجل له هذا العمل الذى هدف من ورائه التدخل فى الشئون السياسية العليا التى تخص دار الخلافة، والذى أقلق به الحكومة المركزية، وكلفها الكثير فى مقاومته.

وتطالعنا الأحداث التاريخية سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٥م على شخصية أخرى من حكام الأقاليم المصرية فى عصر الخلفاء الفاطميين، تمكنت بما أوتيت من قوة وحسن سياسة أن تلعب دورا فى سياسة الدولة، وتصل إلى الوزارة وذلك رغم كون صاحبها مسيحيا، وهو بهرام الأرمنى، هذه الشخصية الأرمنية التى تألقت على مسرح الأحداث فى عهد الخليفة الحافظ لدين الله، ولم يكن بهرام فى بداية أمره إلا زنانا للأرمن أو مقدم للأرمن[٥]. وأتيحت الفرصة لهذا الوالى – على إقليم الغربية – للتدخل فى السياسة بعد الفتنة التى وقعت بالبلاد على يد

(١) ابن ميسر: أخبار، ص ٦١: ٦٢ ، النويرى: السابق، ص ٢٤٦، المقريزى: الخطط ،ج٢، ص ٢٧٧، اتعاظ، ج ٣، ص ١٤: ١٥.

(٢) المقريزى: الخطط، ج ٢، ص ٢٧٧: ٢٧٨، الدوادارى: الدرة المضية، ص ٤٤٧.

(٣) النويرى: نهاية الأرب، ج ٢٨ ، ص ٢٤٦.

(٤) د. الشيال: أعلام الإسكندرية، ص ٧٠.

(٥) الزنان أو الزمام: الزنان دار المعبر عنه بالزمام دار"لقب" الذى يتحدث على باب ستارة السلطان أو الأمير من الخدام الخصيان، وهو مركب من لفظين فارسين: زنان بفتح الزاى، بمعنى النساء، ودار بمعنى يمسك إلا أن العامة والخاصة قلبوا النونين ميمين ظنا منهم أن الدار بمعناها العربى، ولعل المقصود هنا المقيم على شئون الأرمن أى مقدمهم. المقريزى:اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص٩٧، حاشية ٥. د. سهام أبو زيد: تاريخ الأرمن، ص ٧٥.

الحسن بن الحافظ[١]، وطلب مساعدة بهرام إلا أن بهرام تراجع عن تقديم المساعدة للحسن، ثم كان ما كان، إلى أن دخل القاهرة بعد مقتل الحسن. وهنالك أمسك به الجنود وأدخلوه على الحافظ ليوليه الوزارة[٢] وكان الحافظ قد استشار أهله وأكابر دولته فى تولية هذا الأمير الأرمنى النصرانى للوزارة فكلهم كره ذلك. وأشاروا عليه ألا يفعل[٣]، وقالوا إنه نصرانى لا يرضاه المسلمون، وإن من شروط الوزارة أن الوزير يرقى المنبر مع الإمام فى الأعياد ليزرر عليه المزره الحاجزة بينه وبين الناس، وأن القضاة هم نواب الوزراء، من زمن أمير الجيوش بدر الجمالى، ويذكرون فى النيابة عنهم فى الكتب الحكمية النافذة إلى الأفاق وكتب الأنكحة، فقال الحافظ: " إذا رضينا نحن فمن يخالفنا، وهو وزير سيف، وأما صعود المنبر فينيب عنه قاضى القضاة. وأما ذكره فى الكتب الحكمية فلا حاجة إلى ذلك، واستوزره الحافظ والناس ينكرون عليه ذلك "[٤].

هكذا نجح هذا الشخص الذى لم يزد عن كونه واليا لإقليم من أقاليم مصر زمن الخلفاء الفاطميين، فى أن يقوم بدور مؤثر فى سياسة الدولة، وذلك بما أوتى من حسن سياسة وتدبير وبعد نظر. حتى ذكر أن الأمر كله كان بتدبير من بهرام نفسه[٥] إلى أن وصل به الأمر أن ولى أكبر منصب فى الدولة آنذاك وهو الوزارة، وذلك عن اقتناع ورضا من الخليفة، رغم كونه غير صالح له لنصرانيته، إلا أنه بذكائه وبعد نظره وغيرها من الصفات السابقة الذكر، نجح فى الوصول إلى ما هدف إليه. إلا أنه لم يسر على نفس هذه الصفات أثناء وزارته، إذ يرى بعد تولية الوزارة طاغيا مستبدا جائرا، مائلا على المسلمين، مكثرا من

(١) عنها بالتفصيل انظر. النويرى: السابق، ص ٢٩٩ ، المقريزى: الخطط، ج ٣، ص٢٧: ٢٩ الدوادارى: الدرة المضية، ص ٥١٤: ٥١٥.

(٢) ابن ميسر: أخبار، ص ١٢٢. وعن هذا بالتفصيل انظر المقريزى: اتعاظ، ج ٣، ص ١٥٥، وعن سبب وزارته. انظر. الدوادارى: الدرة المضية، ص ٥١٥.

(٣) د. سهام أبو زيد: تاريخ الأرمن، ص ٧٧: ٧٨.

(٤) النويرى: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٠١.

(٥) د. سهام أبو زيد: تاريخ الأرمن، ص ٧٥: ٧٧.

أهله وأقاربه، ممكنا لهم فى شئون البلاد، مما أدى إلى غضب الناس عليه، فاستعانوا بشخصية أخرى من حكام الأقاليم للانتقام والخلاص منه[١].

ومن الطريف أن تكون نهاية وزارة هذا الوال على يد وال آخر لإقليم الغربية أيضا، وهو الأمير " رضوان بن ولخشى " وعن هذه الشخصية ودورها يقول ابن ميسر فى ذكره لأحداث سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة: "وكان رضوان أحد الأمراء بالقاهرة، ويوصف بشجاعة وإقدام، فلما ولى بهرام الوزارة خافه وخشى وثوبه عليه، فأبعده عنه وأخرجه من مصر، وكان إذ ذاك يلى حجبة باب الخليفة الحافظ، فخلع عليه بولاية عسقلان فى سلخ رجب سنة تسع وعشرين وخمسمائة .... فأخذ بهرام فى إبعاده وولاه الغربية فى صفر سنة إحدى وثلاثين، فلما وصلت إليه كتب الأمراء شمر لطلب الوزارة، وكان أول ما بدأ أن رقى المنبر خطيبا بنفسه، وخطب خطبة بليغة حرض الناس فيها على الجهاد، وكان ذلك بناحية سخا، وأخذ فى حشد العربان وغيرهم "[٢]. ويذكر أن الأمراء كانوا قد كاتبوه يشكون إليه ما حل بالمسلمين على يد بهرام، وبنى جنسه من الظلم، ويستحثونه على الميسر وإنقاذهم مما نزل بهم[٣]. وفى هذا يقول النويرى:" أن الأمراء قد كاتبوه وقالوا إذا وقع الوجه فى الوجه ارفع المصاحف على الرماح، فإنا ننحاز إليك، ففعل ذلك "[٤]. يذكر المقريزى: " أن الخليفة لما ضاق به الحال من استبداد بهرام بالأمر، كتب إلى رضوان بالمسير ونزع الوزارة من بهرام إذ تبين أنه ليس من أهل الملة "[٥] فلما وصلت إليه هذه الكتب كان أول ما بدأ به أن رقى منبر مدينة سخا وخطب فى الناس خطبة بليغة[٦]، وحرضهم على قتال بهرام، ثم حشد العربان ومقتطعى البلاد حتى استجاب له نحو من ثلاثين ألفا، فأخرج لهم كتب الخليفة إليه[٧]. وذلك ليتحققوا من مشروعية جهاده لبهرام وللأرمن الذين معه[٨]. فلما

(١) د. سهام أبو زيد: تاريخ الأرمن، ص ٧٩: ٨١.
(٢) ابن ميسر: أخبار، ص ١٢٤.
(٣) المقريزى: اتعاظ، ج ٣، ص ١٥٩.
(٤) النويرى: السابق، ص ٣٠٢.
(٥) المقريزى: اتعاظ، ج ٣، ص ١٥٩: ١٦٠.
(٦) ابن ميسر: أخبار، ص ١٢٤.
(٧) المقريزى: اتعاظ، ج ٣، ص ١٥٩.
(٨) د. سهام أبو زيد: تاريخ الأرمن، ص ٨٢ .

تقارب الجيشان رفع جند رضوان المصاحف على الرماح. حسب الاتفاق المسبق بينه وبين الأمراء. وكان فعلا ما اتفقا عليه والتجأ جند بهرام إلى رضوان[١]، فلما رأى بهرام بعث إلى الخليفة يعرفه الحال، ويطلب مشورته، فخاف من عاقبة ذلك، وسير إليه بالمسير إلى الأعمال القوصية ليقيم بها عند أخيه المعروف " بالباساك "[٢]، حتى يرى رأيه، فعاد بهرام إلى القاهرة وأخذ ما خف حمله، وخرج منها فى حادى عشر جمادى الأولى وسار إلى قوص[٣].

لكن قبل وصول بهرام إليها، كان خبر هزيمته قد وصل أهلها، فثار المسلمون بها على الباساك، وقتلوه ومثلوا به، وجعلوا فى رجله كلبا ميتا وألقوه إلى مزبلة. فلما كان بعد قتله بيومين قدم بهرام فوجد أخاه على هذه الحال، فقتل جماعة من أهل قوص ونهبها، وسار عنها إلى أسوان بالأديرة البيض[٤]. وفارقه أهله عائدين إلى بلادهم[٥]، أما رضوان فإنه لما خرج بهرام من القاهرة وقف بين القصرين، واستأذن الحافظ فيما يفعله، فأشار بنزوله إلى دار الوزارة، فنزلها وخلع عليه خلع الوزارة، ونعت بالأفضل[٦]، ويذكر أنه أول من لقب بالملك[٧]، وكان أول ما بدأ به أن بعث أخاه " ناصر الدين" إلى بهرام، فسار إلى الأديرة،

(١) يذكر أحد المؤرخين المحدثين وهو الأستاذ الدكتور: المناوى أن سبب عدم محاربة بهرام لرضوان. ذكره بهرام نفسه عندما قال لأتباعه: " اعلموا أننا قوم غرباء، لم نزل نخدم هذه الدولة والآن فقد كثر بغضهم لأيامنا وما كنت بالذى يكون عبد قوم أخدمهم فى حال الصبا، فلما بلغنى الكبر أقاتلهم، والله لا ضربت فى وجوههم بسيف أبدا، فأخذ أمراء الدولة وعساكرها يخرجون شيئا بعد شئ إلى رضوان. د. المناوى: الوزارة والوزراء، ص ١٦٨: ١٦٩.

(٢) وكان بهرام قد ولى أخاه المعروف بالباساك إمرة إقليم قوص فجار على الناس جورا عظيما واستنتاج الأموال، فعظم ذلك على الناس. وإلى الباساك تنسب المنية التى بالقرب من أطفيح المعروفة بمنية الباساك. ويذكر ابن ميسر أنها قرية تعرف بهذا الاسم. ابن ميسر: أخبار، ص ١٢٥، النويرى: السابق، ص ٣٠٢، المقريزى: الخطط، ج١، ص ٣٣٢، اتعاظ، ج ٣، ص ١٥٩.

(٣) ابن ميسر: أخبار، ص ١٢٥، الأزدى: أخبار، ص ١٦٧.

(٤) الأديرة البيض أماكن محصنة فى غربى أخميم. ابن ميسر: أخبار، ص ١٢٥.

(٥) عن هذا بالتفضيل انظر: ابن ميسر: السابق نفسه، النويرى: السابق، ص ٣٠٣، المقريزى: اتعاظ، ج ٣، ص ١٦١.

(٦) ابن ميسر: أخبار، ص ١٢٦، النويرى: السابق،نفس الصفحة.

(٧) المقريزى : اتعاظ، ج ٣، ص ١٦١.

وتقرر الحال من غير قتال على إقامة بهرام بها[١]، أما الجند الذين كانوا معه فقد عادوا إلى مصر[٢]، ودبر رضوان الأمر أحسن تدبير[٣].

وفى الواقع أن ما قام به حاكم إقليم الغربية الأمير رضوان بن ولخشى كانت له أهداف منها ما هو ظاهر. ومنها ما هو فى نفسه. أما الأولى:-

١- تحقيق رغبة الشعب والجنود فى الخلاص من الوزير بهرام الأرمنى.[٤]

٢- رغبة الخليفة فى الإطاحة ببهرام[٥]، لما ظهر له من استبداد بهرام بالأمر وتمكينه لأهله فى البلاد.

٣- محاولة الخلاص من تسلط النصارى وتحكمهم فى البلاد وتعديهم على المسلمين. ويؤكد هذا ما يذكر عن رضوان أنه " كان سنيا حسن الاعتقاد "[٦]

أما الأهداف الخفية فى نفس الأمير هى تطلعه إلى تحقيق آماله فى تولى الوزارة[٧]. هذا المنصب الذى أصبح صاحبه المسيطر الأول على مقاليد الأمور آنذاك.

وهكذا سنحت الفرصة للأمير " رضوان بن ولخشى " أن يشارك فى مجريات الأمور على الساحة السياسية للدولة آنذاك، وساعده على ذلك ما ينتاب البلاد من ضعف، فضلا عن صفاته هو نفسه. وإن كان لم يهنأ بها كثيرا لتوتر العلاقة بينه وبين الخليفة الحافظ، الذى دس عليه أكثر من مرة لحربه واعتقاله، إلى أن قتل سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٩م، وأرسل الحافظ الرأس لزوجة رضوان، فلما وقعت فى حجرها قالت " هكذا تكون الرجال "، وذلك بعد أن تقلب فى ولايات قوص وإخميم[٨]، وعسقلان والغربية، ثم أخيرا الوزارة.

---

(١) لكن سرعان ما استدعاه الحافظ مرة ثانية ليكون بجواره، وذلك بأن أحضره من الصعيد وأسكنه فى القصور وأكرمه، لكن لم يمكنه من التصرف، وكان يشاوره فى تدبير الدولة والأمور ويصدر عن رأيه، إلى أن توفى فى ربيع الآخرة سنة ٥٣٥هـ فحزن عليه الحافظ حزنا شديدا، وأمر بغلق الدواوين ثلاثة أيام. النويرى: السابق، ص ٣٠٤: ٣٠٦.

(٢) ابن ميسر: السابق، ص ١٢٦.

(٣) النويرى: السابق، ص ٣٠٣، المقريزى: اتعاظ، ج ٣، ص١٨٢: ١٨٤.

(٤) د. سهام أبو زيد: تاريخ الأرمن، ص ٨٢.

(٥) د. سهام أبو زيد: نفسه.

(٦) الأزدى: أخبار، ص ١٦٧.

(٧) د. سهام: تاريخ الأرمن، ص ٨٢.

(٨) النويرى: السابق، ص ٣٠٦.

وفى عهد الخليفة الظافر وقعت عدة أحداث جسام فى مجال السياسة الداخلية، كان لها تأثير كبير على هذه الساحة، ومن الملفت للنظر أن يكون حكام الأقاليم هم محركوا هذه الأحداث. فمما يذكر أنه لما بويع الخليفة الظافر بالخلافة سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م، خلع على الأمير نجم الدين أبى الفتح سليمان بن مصال اللكى خلعه الوزارة، ولقبه " بالأفضل أمير الجيوش سعد الملك ليث الدولة " وذلك فى نفس اليوم الذى بويع فيه بالخلافة، [١] وكان ابن مصال هذا من أكابر الأمراء بالدولة[٢]، كما كان عالما بأصول الدين، الدين، شيخا لينا متواضعا، فدبر الأمور أحسن تدبير. لكن كانت مدته فى الوزارة حوالى شهرين، إذ يذكر أنه لما بلغ الأمير على بن السلار والى البحيرة والإسكندرية ولاية ابن مصال للوزارة أنكر ذلك عليه، وحشد وخرج من الإسكندرية إلى الغربية، واتفق مع ابن زوجته الأمير " عباس " أمير الغربية، وقصدا القاهرة [٣]. مستغلا خروج ابن مصال إلى البهنساوية لقتال من من تجمع فيها من السودان والمفسدين[٤]. ولما علم بذلك ابن مصال طالع الظافر بأمر الله بالأمر فكان أن جلس بالإيوان وأحضر الأمراء –كما يذكر ابن الطوير – أنه " .... قال لهم ابن مصال، لا شك أنت فى علمكم بما عول ابن السلار وعباس وأنا مملوك مولانا، ومملوك الله من قبله، ولما رضى بخدمتى هذا الخليفة الحاضر ما كان والله بمقدمة منى ولا طلب، فما تقولون فى هذا؟ والخليفة يسمع كلامه ولا ينكر عليه، فقال الأمراء نحن مماليك مولانا سامعون مطيعون. فقال درى الحرون. وهو من رفقه ابن السلار، إن سمع منى ما أقول قلت، فقال ابن مصال قل. قال: مولانا صلوات الله عليه يعلم وأنت تعلم أن ما فى الجماعة من يضرب وجه ابن السلار بسيف أولهم أنا، فإن كان مولانا يقتل جميع أمرائه فالأمر لله وله، فلما سمع الأمراء هذا خرجوا من القصر، وشدوا على خيولهم، وساروا يريدون ابن السلار، فقام الظافر مغضبا. وراسل ابن مصال بأن لنفسه ما يرى فيه من الخير وهو يساعده، فرأى أن يخرج إلى الصعيد ليحتمى على ابن السلار، ويكون قبالته بحكم أنه لا طاقة له به لأن

(١) ابن الطوير: نزهة، ص ٥٥.
(٢) ابن ميسر: أخبار، ص ١٤١.
(٣) المقريزى: الخطط، ج ٣، ص ٤٦: ٤٧.
(٤) ابن ميسر: أخبار، ص ١٤٢.

ابن مصال غريب" [١] أما ما أورده المقريزى فى هذا الموقف قوله بعد جمع الخليفة للأمراء قال لهم " هذا نجم الدين وزيرى ونائبى من كان يطيعنى فليطعه ويمتثل أمره، فقال الأمراء نحن مماليك مولانا سامعون مطيعون – ثم كان ما كان بن درى الحرون – فلما غلب الظافر عن دفعه أعطى ابن مصال مالا كثيرا، وأمره أن يعمل لنفسه ما فيه الخير، وهو يساعده، فلما رأى ابن مصال أنه لا طاقة له بابن السلار خرج إلى جهة الصعيد، وعدى إلى الجيزة ليلة الثلاثاء رابع عشر شعبان"[٢].

ولما دخل ابن السلار القاهرة وقف على باب القصر، وسير الظافر، ومن يدبر أمره فأعلم بحاله، وكانت بينه وبين أهل القصر مراجعات، آلت إلى أن فتح أبواب القصر، وخلع عليه خلع الوزارة، ولقب " بالعادل " – فبلغ ذلك ابن مصال فجمع من العربان جمعا كبيرا، وقصد ابن السلار، ومعه مقدم العربان فى تلك البلاد" بدر بن رافع"، فندب ابن السلار ربيبه " عباس "[٣] حاكم إقليم الغربية[٤] فى عسكر كثير، فنزل بركة الحبش، وسيرا ابن مصال طائفة من عسكره، فجد فى السير، وكبس عسكره عباس، فأكثر القتل والجراح فيهم، فانهزم عباس إلى القاهرة، وعاد الأمير ماجد – قائد قوات ابن مصال – إلى ابن مصال، فأجمع رأيه على التوجه إلى بلاد الصعيد، لجمع العربان والأجناد، فتوجه لذلك وأخذ ابن السلار فى تجهيز عسكره. فجهزه فى عسكر كثيف، خوفا من اجتماع الناس على ابن مصال، فلحقه عباس على دلاص[٥]. وكان معه فى هذه النوبة الأمير طلائع بن رزيك، وكان مقدما آنذاك، فكانت بينه وبين ابن مصال واقعة انجلت عن قتل ابن مصال وبدر بن رافع فى يوم الأحد تاسع عشر شوال، وعاد عباس بمن معه إلى ابن السلار برأس ابن مصال، وطيف بها القاهرة

---

(١) ابن الطوير: نزهة، ص ٥٦: ٥٧.

(٢) المقريزى: اتعاظ، ج٣ ، ص ١٩٦: ١٩٧.

(٣) عنه انظر المقريزى: الخطط، ج ٣، ص ٨٩.

(٤) يذكر ابن أيبك قولا مخالفا لما ذكر. حيث يقول: أن عباس هذا كان متوليا لإقليم الشرقية. كما يذكر أن عباس كان يريد الزواج من المرأة التى تزوجها ابن السلار وليس ابنا لها. وأن نصر هو ربيب ابن السلار. الدرة المضية ص ٥٥٣

(٥) دلاص: من القرى المصرية القديمة على الضفة الغربية للنيل من أعمال البهنسا، وهى حاليا تابعة لمركز بنى سويف. محمد رمزى: القاموس الجغرافى، ق٢، ج٣، ص ١٥٩: ١٦٠.

ومصر، وخلع على ابن السلار فى ذلك اليوم[١]، فوزر ابن السلار، قام بالأمر وفى نفسه وحشه من الظافر، فاحترز لذلك، واتخذ الحرس الكثير لنفسه[٢].

وهكذا وصل حاكم ثغر الإسكندرية إلى الوزارة ، والتى وليها على مضد من الخليفة نفسه[٣]. لكنه للأسف لم يهنأ بها كثيرا، إذا سرعان ما قتل على يد ابن ربيبه" عباس "، والذى كان قد تزوج ورزق ولدا سمى " نصر"، ولقبه ناصر الدين، وكان الوزير ابن السلار يحنو عليه وهو فى دار جدته زوج الوزير، فلما كبر ناصر الدين وتولى ابن السلار الوزارة، ولى نصر إمرة مصر بشفاعة جدته أم عباس على كراهية منه لذلك، وأوصاه ألا يعمل فى حق المصريين منكرا وبهذا يكون قد ظهر ضلع ثالث لمثلث حكام أقاليم تحكموا فى سياسة هذه الحقبة، وأحاطوا بدار الخلافة، من حاكم الإسكندرية الذى ولى الوزارة، إلى حاكم الغربية مساعده والوزير القادم، ثم حاكم مصر صاحب اليد الطولى فى الأحداث التالية.

وبعد استقرار ابن السلار فى الوزارة أخذ فى تدبير أمور الدولة داخل مصر وخارجها، حتى لم يبق للخليفة معه حكم، وكان من الأمور التى اهتم بها ابن السلار اهتمام كبيرا، هو أمر عسقلان، والتى حرص كل الحرص على ألا تخرج من يد المسلمين بحال من الأحوال، حتى أنه كان يدعو فى صلاته بألا يقضى الله أخذ عسقلان فى أيامه[٤]. فاستجاب الله منه – كما كان يجرد لها العسكر باستمرار، وحدث فى سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م أن جهز العسكر وجعل على رأسه "عباس" ومعه الأمراء ضرغام وأخيه ملهم وأسامة بن منقذ، وكان أسامة خصيصا بعباس، فلما نزلوا بلبيس تذاكر عباس وأسامة مصر، فقال له أسامة ابن منقذ: " إن أردت كنت أنت سلطان مصر" فوقع هذا الكلام من " عباس " بموقع وقبله[٥]، فقال " وكيف وكيف لى بذلك؟ " فقال: " هذا ولدك " ناصر الدين بينه وبين الخليفة مودة فخاطبه على لسانه أن تكون سلطان مصر موضع زوج أمك، فإنه يحبك ويكرهه، فإذا أجابك فاقتله وسر

(١) ابن ميسر: أخبار، ص ١٤١: ١٤٢، النويرى: السابق، ص ٣١١: ٣١٢، ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٨٢. المقريزى: الخطط، ج ٣، ص ٤٦: ٤٧، اتعاظ، ج ٣، ص ١٩٦: ١٩٧. ابن أيبك: الدرة المضية، ص ٥٥٢: ٥٥٣.

(٢) ابن الطوير: نزهة، ص ٥٩.

(٣) ابن الطوير: السابق، ص ٥٧.

(٤) ابن الطوير: نزهة، ص ٦١.

(٥) المقريزى: اتعاظ، ج ٣، ص ٢٠٤.

فى منزلته، فأعجب عباس ذلك، وجهز ابنه لتقرير ما أشار به أسامة، فسار نصر إلى القاهرة، ودخلها على حين غفلة، واجتمع بالظافر، وأعلمه الحال، فأجاب لما طلب ثم مضى نصر إلى عند جدته زوج العادل، وأعلم العادل أن والده أعاده شقفة عليه من السفر، ومضى العادل إلى مصر وجهز المراكب الحربية، وأنفق فى رجالها ليلحق عباسا، وأقام طول نهاره فى العرض والنفقة، وعاد إلى داره وهو على غاية من التعب(١)، فلما دخل إلى فراشه لينام، وكانت امرأته – جدة نصر – قد توجهت إلى الحمام، وخلا البيت لنصر، فجاء إلى باب السر ودخل منه ومعه سيف، فإذا بالعادل قد نام، فاخترط سيفه وضربه وهو خائف، فوقعت الضربة على رجله، فثار من فراشه وأبصره فقال: " إلى أين يا كليب " وخرج نصر بعد وكان قد أعسته جماعة من أصحابه، فلما صار إليهم وأعلمهم بما وقع قالوا: " قد قتلت نفسك وقتلتنا " ودخلوا وهو معهم، فإذا بالعادل قد جاء إليه أستاذ وهو يحدثه، فقتلوه وأخذوا رأسه، فطلع بها نصر إلى الظافر، وماج الناس فى القاهرة(٢).

وبعدها جهز نصر إلى أبيه، فركب لوقته، ودخل القاهرة صبيحة يوم الأحد الثانى عشر من المحرم ٥٤٨هـ / ١١٥٣(٣). وانتهى العادل بعد وزارة دامت حوالى ثلاث سنوات ونصف سنة تقريبا، وبعدها نصب عباس فى الوزارة، وكان المنفذ الأول لكل هذه الأحداث هو نصر بن عباس والى مصر، والذى لم يقف دوره عند هذا الحد.

ولما وصل عباس من بلبيس إلى القاهرة، خلع عليه الظافر خلع الوزارة، وفوض إليه الأمر(٤)، ونعت" بالأفضل ركن الإسلام " فباشر وضبط الأمور وأكرم الأمراء وأحسن إليهم لينسيهم العادل(٥).

واستمر نصر على مخالطة الخليفة، فاشتغل به عن كل أحد(١)، وأبوه لا يعجبه ذلك، ذلك، وواصل الخليفة نصر بالهدايا الكثيرة والعطاء الجزيل فأرسل إليه فى يوم عشرين صينية

(١) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص ٦١: ٦٢، الأزدى: أخبار، ص ١٧١: ١٧٢، النويرى: نهاية الأرب ، ج ٢٨، ص ٣١٤: ٣١٥، المقريزى: الخطط ،ج٣، ص ٨٩: ٩٠.

(٢) الأزدى: أخبار، ص ١٧٢، المقريزى: اتعاظ، ج ٣، ص٢٠٥، أبو الفدا: المختصر، ج٣، ص٢٧.

(٣) ابن منقذ: الاعتبار، ص ١٩.

(٤) ابن منقذ: نفسه.

(٥) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص ٦٧، المقريزى: اتعاظ ،ج٣، ص ٢٠٦.

فضة فيها عشرون ألف دينار، ثم أغفله أياما وحمل إليه كسوة من كل نوع، وأغفله أياما وبعث خمسين صينية فضة فيها خمسون ألف دينار، وأغفله أياما وبعث إليه ثلاثين بغل رحل وأربعين حملا بعددها وغرائرها وحبالها. فضلا عن أن الظافر كان يخرج بنفسه إلى بيت نصر[٢]. ومع هذه الصلة استوحش الوزير من الخليفة لجرأة ابنه، وتوهم أنه ربما يحمله على قتله، فعاتب ابنه سرا، ونهاه عن ملازمة الخليفة، فلم يفد فيه القول[٣]. وفى سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٥م استدعى الظافر ناصر الدولة، وأخرج له صينية من ذهب، فيها ألف حبه ما بين لؤلؤ وياقوت أحمر وأصفر وزمرد أخضر، وأمر له من بيت المال بعشرة آلاف دينار مصرية، وكان مقابل الهدية هو قتله الخليفة بعدها بستة أيام[٤].

ويذكر أن سبب قتله لأن الوزراء كانوا مستوحشين من عباس، كارهين منه تقريبه "أسامة بن منقذ" لما علموا أنه هو الذى حسن لعباس قتل ابن السلار، وهموا بقتله، وتحدثوا مع الخليفة فى ذلك، فبلغ أسامة ما هم عليه، وكان غريبا عن الدولة، فأخذ يغرى الوزير عباس بابنه نصر، ويبالغ فى تقبيح مخالطته للظافر[٥]، بل وصل به الأمر إلى أن قال له مرة: "كيف تصبر على ما يقول الناس فى حق ولدك من أن الخليفة يفعل به ما يفعل بالنساء؟" فأثر ذلك فى قلب عباس، واتفق أن الظافر أنعم على نصر بمدينة قليوب، فلما حضر إلى أبيه وأعلمه بذلك وأسامة حاضر فقال له " يا نصر ما هى بمهرك غالية " يعرض له بالفحش، فأخذ عباس من ذلك ما أخذه، وتحدث مع أسامة لثقته به فى كيفية الخلاص من ذلك، فأشار عليه بقتل الظافر إذا جاء إلى دار نصر على عادته فى الليل، وأخذ يحرض على قتل الظافر ويؤكد عليه بشدة. حتى إذا كانت ليلة الخميس آخر المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة خرج الظافر من قصره متنكرا ومعه خادم كما هى عادته، ومشى إلى دار نصر بن عباس. فإذا به قد أعد له من قتله ومعه أحد الخادمين اللذين فى صحبته، وهرب الآخر إلى

---

(١) المقريزى: الخطط، ج٣، ص ٤٧.

(٢) ابن منقذ: الاعتبار، ص ١٩: ٢٠، ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص ٦٧، المقريزى: الخطط، ج٣، ص٤٧، اتعاظ، ج٣، ص ٢٠٦.

(٣)ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص ٦٧، المقريزى: اتعاظ، ج ٣، ص ٢٠٦.

(٤)المقريزى: اتعاظ، ج٣، ص ٢٠٨.

(٥) الأزدى: أخبار، ص ١٧٣.

القصر، ودفن الظافر والخادم تحت الأرض، وكان سنه يوم قتل إحدى وعشرين سنة وتسعة أشهر ونصف[١]. وكل هذه الأعمال الجسام التى هزت الدولة وأرجفت دار الخلافة تقع بيد والى مصر.

وفى اليوم التالى حضر عباس إلى الخليفة على عادته وطلب لقاءه، فأعلمه زمام القصر بما كان من خروج الخليفة إلى ابنه نصر كالعادة وعدم عودته[٢]، فكان أن اتهم أخوى الخليفة يوسف وجبريل بقتله فخرجا إليه وبرءا نفسهما، ولكنه أصر على رأيه مع علمه بالحقيقة، فما كان منه إلا أن قتلهما لتوه فى القصر، وأمر بولد الظافر وكان طفلا عمره خمس سنوات، وقيل سنتان، ولقبه بالفائز وأخذ له البيعة، ودبر هو الأمور كلها[٣].

ولهذا يصل الهوان والضعف بالخلفاء الفاطميين فى مصر، تدبر شئونهم، ويغرى بهم، ويقتلوا على يد حكام الأقاليم أو من كانوا حكاماً للأقاليم، دون أن يوجد منهم من يحرك ساكنا. وأمام هذا كله لم يجد نساء القصر أمامهن إلا الاستنجاد بمن يأملون منه النصر ويتوقعونه.

وبعد هذه الأحداث ظن عباس أن الأمر قد استقام له، لكن الحال كان بخلاف ذلك[٤]. وأخذ عباس من القصر مالا لا يحصى، وجواهر نفيسة، فثار الجند والسودان عليه[٥]. ولما كثرت الأقوال وعرف الخبر الصحيح، استوحش الناس، وناح أهل القصر نوحا خفيفا، وأخذوا فى إعمال الحيلة فى قتل الوزير عباس وابنه نصر[٦]، فكان أن كاتب من فى القصر من بنات الحافظ "فارس المسلمين أبا الغارات طلائع بن رزيك" والى منية ابن الخصيب يستصرخون به[٧].

---

(١) الأزدى: أخبار، ص ١٧٤، المقريزى الخطط ،ج٣، ص ٤٧: ٤٨، اتعاظ، ج ٣، ص ٢٠٨.

(٢) الأزدى: أخبار، ص ١٧٤.

(٣) ابن الطوير: السابق، ص ٦٨: ٦٩، النويرى: السابق، ص ٣١٧: ٣١٨، المقريزى: اتعاظ، ج٣، ص ٢١٣: ٢١٤.

(٤)ابن ميسر: أخبار، ص ١٤٩، الأزدى: أخبار، ص ١٧٧.

(٥) ابن الوردى: تاريخه، ج٢، ص ٥٥.

(٦)ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص ٧٠ .

(٧) ابن منقذ: الاعتبار، ص ٢٢.

وهنالك تتألق على مسرح الأحداث شخصية أخرى لحاكم من حكام الأقاليم، هذه الشخصية التى نجح صاحبها أن يوسع دائرة نفوذه، وأن ينتقل فى طفرة من مجرد مهاجر أرمنى فقير إلى الخدمة فى قصور الخلفاء الفاطميين. ثم إلى ولاية البحيرة، وهنالك ظهرت قوته لحرب الخارجين على الدولة[١] ثم تولى على الأسيوطية[٢]. وقد أتته الفرصة السانحة فى الرسالة التى أرسلها نساء القصر يطلبون منه النجدة، والتى جعل فى طيها شعور النساء[٣]. فلما وقف طلائع بن رزيك على الكتاب وفهم معناه، أطلع من حوله من الأمراء والأجناد عليه، وتحدث معهم فى المعنى فأجابوه إلى الخروج واستحال جمعا من العرب معه، وتوجه بالجمع إلى القاهرة، وقد لبسوا السواد[٤]، ولما قدم القاهرة، رفع الشعور على الرماح، وأقام الرايات السود إظهارا للحرب[٥].

أما عن أحداث القتال فينقلها لنا مؤرخ معاصر، بل شاهد عيان للحرب، وهو أسامة بن منقذ الذى كان أحد جنود عباس، ويبدو أن هذا هو ما أدى به إلى عدم الحياد فى نقله لهذه الرواية التاريخية حيث يقول: " جعل عباس ابنه نصر على القاهرة وتوجه هو لقتال طلائع بن رزيك، وهنالك خامر عليه الجند وغلقوا أبواب القاهرة، ووقع القتال بيننا وبينهم فى الشوارع والأزقة. خيالتهم تقابلنا فى الطريق، ورجالتهم يرموننا بالنشاب والحجارة من على السطوحات، والنساء والصبيان يرموننا بالحجارة من الطاقات، ودام القتال بيننا وبينهم من ضحى النهار إلى العصر، فاستظهر عليهم عباس، وفتحوا أبواب القاهرة وانهزموا، ولحقهم عباس إلى أرض مصر فقتل منهم من قتل وعاد إلى داره وأمره ونهيه، وأمر بإحراق البرقية، لأنها مجمع دار الأجناد، فلاطفه أسامة فى هذا ورد عنه، ثم سكنت الفتنة، وقد ارتاع منها عباس، وتحقق من عداوة الجند والأمراء، وأنه لا مقام له بينهم، وثبت فى نفسه الخروج من مصر وقصد الشام "[٦].

---

(١) د. سهام أبو زيد: تاريخ الأرمن، ص ٩٠.

(٢) ابن ميسر: أخبار، ص ١٤٩.

(٣) ابن ميسر: السابق، نفسه.

(٤) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص ٧١ .

(٥) الأزدى: أخبار، ص ١٧٧، القلقشندى: الأعشى، ج ٣، ص ٢٧١.

(٦) ابن منقذ: الاعتبار، ص ٢٢: ٢٣، المقريزى: اتعاظ، ج ٣، ص ٢١٦: ٢١٧.

هكذا يذكر ابن منقذ الأهوال التى لا قوها من طلائع والجنود وأهل البلاد كذلك، ورغم هذا يذكر أن النصر كان حليف عباس، لكن يعود ويذكر أن عباسا قرر الخروج من القاهرة، مبررا ذلك لتحققه من عداوة الجند[١]. ويبدو أن عباسا على الرغم من انتصاره إلا أنه آثر السلامة والانسحاب خشية عداوة الجند له.هذا بينما يتناول ابن ميسر هذا الحدث دون أن يورد أحداث القتال أو أى ذكر لصراع فيه بقوله: " إلى أن دخل عباس القاهرة وشقها بعسكره، وذلك بعد خروج عباس حاملا ما خف حمله متوجها إلى الشام[٢]، ونهب الناس دوره " [٣]. وهنالك دخل طلائع القاهرة لابساً السواد، وكان هذا من الفأل العجيب، حيث دخلت الأعلام العباسية السود إلى القاهرة وأزالت الأعلام العلوية البيض بعد خمس عشرة سنة[٤].

نزل طلائع إلى دار المأمون التى كان يسكنها عباس، وأحضر الخادم الذى كان مع الظافر لما قتل، فأعلمهم مكانه، فأخرجه وغسله وكفنه، وعمله فى تابوت مغشى عليه، وحمله الأستاذون والأمراء، ومشى طلائع شاقا ثيابه حافيا، والخلق قدام الجنازة إلى موضع الدفن وهو فى تربة القصر[٥]. وجلس الفائز بقية النهار، وخلع على طلائع بن رزيك بالموشح بالموشح والعقد، وعلى ولده وأخوته. وحاشيته، وقرئ سجله بالوزارة ونعت بالملك الصالح[٦].

هكذا صارت الوزارة فى حجر طلائع بن رزيك، وهو من كان واليا لمنية بنى الخصيب من قبل، وقبلها البحيرة، وقد استمر فى الوزارة حتى وفاة الخليفة الصغير الملقب بالفائز بنصر الله فى شهر رجب سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م. فأقام الصالح من بعده فى الخلافة

---

(١) د. سهام أبو زيد: تاريخ الأرمن، ص ٩١: ٩٢.

(٢) ولما خرج عباس إلى الشام ومن معه كاتبت أخت الظافر العبيدى فرنج عسقلان بسببه وشرطت لهم مالا جزيلا إذا قضوا عليه أو قتلوه ، فخرجوا عليه وصادفوه فتواقعوا وقتلوا عباسا وأخذوا ماله وولده وانهزم بعض أصحابه إلى الشام وفيهم ابن منقذ فسلموا، وسير الفرغ نصر بن عباس إلى القاهرة تحت الحوطة فى قفص حديد، فلما وصل تسلم رسولهم ما شرطت لهم أخت الظافر من المال. ابن الطوير: نزهة، ص ٧٣،أبو المحاسن: النجوم، ج ٥، ص ٣١٠.

(٣) ابن ميسر: أخبار، ص ١٤٩: ١٥٠، النويرى: السابق ،ق ٤، ص ٣١٨: ٣١٩، ابن الوردى: تاريخه، ج٢، ص ٥٥ .

(٤)ابن ميسر: السابق، القلقشندى: صبح ج٣ ص ٢٧١ ، المقريزى: اتعاظ ٢١٧/٣

(٥) ابن ميسر السابق، ص ١٥٠، ابن الطوير:السابق، ص٧٢، الأزدى: أخبار، ص ١٧٨، النويرى: السابق، ص٣٢٠.

(٦) ابن ميسر: أخبار، ص ١٥٠، المقريزى: الخطط، ج٣، ص١٧٣، اتعاظ، ج٣، ص ٢١٨.

العاضد لدين الله أبا محمد عبد الله بن الأمير يوسف بن الحافظ لدين الله، وكان عمره يوم بويع بالخلافة نحو إحدى عشرة سنة[١].

وفى وزارة الصالح وقعت بعض الأحداث الجسام من قبل بعض حكام الأقاليم، بقصد تحقيق أغراض خاصة تتصل اتصالا مباشرا بسياسة الدولة، بل ربما تمسها فى الصميم، حيث قام بعض حكام الأقاليم المصرية بعدد من حركات التمرد والشغب، فى محاولات للتخلص من الصالح والوصول إلى كرسى الوزارة.

ويذكر من هؤلاء الولاة الأمير" الأوحد بن تميم " واحد من أعيان الأمراء[٢]، وقد كان واليا على دمياط وتنيس، أثناء الفتنة التى وقعت بمصر وقتل على أثرها الخليفة الظافر، فلما سمع الأوحد بن تميم بمقتل الخليفة، تحرك وسار إلى القاهرة، فسبقه طلائع بن رزيك بيوم واحد، فخاب قصده، فرده طلائع بن رزيك إلى ولايته، وأضاف إليها الدقهلية والمرتاحية، وهو يسر له المكر[٣]، ثم إنه قلق من قرب الأوحد منه، وأراد إبعاده عنه، مولاه أسيوط وإخميم حتى تخلو له القاهرة[٤]، بإبعاد هذا الشخص عن مسرح الأحداث والذى ربما نال هو الوزارة دون طلائع لو كان قدر له أن سبقه. لكن هذا البعد لم يفت فى عضد الأوحد، إذ يذكر أنه فى سنة ٥٥٠هـ / ١١٥٥م خرج الأوحد بن تميم على الصالح، وجمع جمعا موفورا[٥] فى محاولة للقضاء على الصالح والوصول إلى الوزارة، ولما علم بذلك الوزير الوزير سير إليه عدة من العسكر، فكانت بينهما وقائع أسفرت عن قتل الأوحد فى يوم الأربعاء سابع عشر رجب فى السنة نفسها[٦].

ولم تكن محاولة الأوحد هى الوحيدة من نوعها التى وقعت فى عهد الصالح، بل ظهرت على مسرح الأحداث السياسية شخصية أخرى لحاكم من حكام الأقاليم، وهو الأمير

---

(١) المقريزى:ك الخطط، ج ٣، ص ١٧٣.

(٢) أبو المحاسن: النجوم، ج ٥، ص ٣١٢.

(٣) المقريزى: اتعاظ، ج ٣، ص ٢٢١، أبو المحاسن: النجوم، ج ٥، ص٣١٢.

(٤)المقريزى: السابق، نفس الجزء، ص ٢٢٤.

(٥)ابن ميسر: أخبار، ص ١٥٤، النويرى: نهاية الأرب، ص ٣٢٠، المقريزى: اتعاظ، ج٣، ص ٢٢٤.

(٦) المقريزى: السابق، نفس الجزء والصفحة.

" ناصر الدولة ياقوت "[١] حاكم إقليم قوص من قبل الصالح، وقد ظل عليها إلى ما بعد سنة ٥٥٠هـ / ١١٥٥م[٢] وقد أرسل فى التاريخ المذكور فى طلب عمارة اليمنى ليعطيه مائة أردب قمحا ليحملها من مال الديوان إلى مكة المكرمة، وقد كانت لهذا الوالى علاقات وثيقة بالأمير عز الدين حسام ابن أخت الملك الصالح[٣]، لكن رغم صلة هذا الأمير بالصالح وأقاربه، إلا أن ذلك لم يمنعه من الخروج على الصالح، ومحاولة الإطاحة به والوصول للوزارة، حيث يذكر أنه فى سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م قبض الملك الصالح على الأمير " ناصر الدولة ياقوت " وأولاده واعتقلهم، وسبب ذلك أنه كاتب أخت الظافر، وقصد القيام على الصالح وأخذ الوزارة منه، ولم يزل ناصر الدولة فى حبسه إلى أن توفى فى رجب سنة ٥٥٣هـ / ١١٥٧م[٤].

وهذا على الرغم مما ذكره المقريزى عن زهد هذا الأمير فى الوزارة، وعزوفه عن الاشتراك فى الحياة السياسية من قبل، حيث يقول: " ولما استدعى أهل القصر طلائع بن رزيك..... لم يجسر على الحركة حتى كتب إلى ناصر الدولة يعلمه بذلك، ويستدعيه ليكون له الأمر، فأعاد جوابه يظهر الزهد فى ذلك، وأنه تركه فى أيام الخليفة عن قدره، ظنا منه أن طلائع لا يصلح ولا يتم له ما يريد من مقاومة عباس فخاب رجاؤه ولم يزل به الصالح حتى أودعه السجن "[٥].

ويمكن القول بأن الذى دفع الأمير " ناصر الدولة " للقيام بهذا الأمر هو السياسة التى اتبعها الصالح آنذاك، من استبداده بالأمر، وميله على أمراء الدولة ومقدميها، ومحاولاته

---

(١)وعنه يقول ابن ثغر بدوى: أنه كان صاحب باب الخليفة الحافظ، وأنه ناب عنه فى مرضة مرضها مدة ثلاثة أشهر. وطلب أن يوزر له فأبى ياقوت المذكور. النجوم، ج ٥، ص ٣١١: ٣١٢.

(٢) عمارة: النكت، ص ٣٨، هذا ما يذكره عمارة بينما يذكر المقريزى أن ناصر الدولة كان واليا على قوص من أيام عباس. اتعاظ، ج ٣، ص ٢٣١.

(٣) عمارة: النكت، ص ١٠٩.

(٤) النويرى: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٢١، المقريزى: اتعاظ ،ج٣، ص٣٢١.

(٥) المقريزى: السابق، نفس الجزء والصفحة.

المستمرة فى إضعاف جانبهم[١]، ويؤيد هذا القول أن حركات التمرد والخروج على الحكومة كانت قد كثرت فى عهد الصالح. كما هو واضح من العرض.

وفى سنة ٥٥٤هـ / ١١٥٩م خرج الأمير طراخان بن سليط ابن طريف "[٢] حاكم إقليم الإسكندرية على وزيره الصالح، وجمع جمعا موفورا[٣]، بقصد طلب الوزارة، فندب الصالح الأمير " عز الدين حسام " وغلامه " ورد " ليهجما على طراخان فى البحيرة قبل أن يعدى إلى الغربية فى غلمانها، فسارا عن البحيرة صلوة العصر أبو بعيدها، وهجما على طراخان بدمنهور فى وقت صلوة العصر من اليوم التالى، فكسراه، فهرب تحت جنح الليل[٤]. وفى هذا قال عمارة شعرا يمدح الأمير " عز الدين حسام " لما أبلاه فى هذه النوبة منه:-

بهرت مناقب مجدك الأوهاما ... استبعدت حسناتك الأفهاما
ونصرت ألوية الهدى بوقائع ... أصبحت فيها يا حسام حساما
ألوت بطراخان بوادرك التى ... سبقت إليه الظن والأوهاما
لولا الفرار وساتر من ظلمة ... قسماته منها أشد ظلاما
لجعلته للبيض أول مغنم ... وقسمته بشفارها أقساما
وخلقت من صم الصعاد لرأسه ... جسما يزيد على الجسوم تماما
رام الوزارة خاطبا فأصبته ... بفوارس أسلته عما راما[٥].

ورغم هذا لم يكن فرار طراخان نهاية لثورته هذه، بل نراها فى السنة التالية أشد وأعنف، إذ انضم إلى طراخان أخوه إسماعيل بعد قدومه من القاهرة [٦]، وقد جمعا حشودا ضخمة

(١) أبو المحاسن: النجوم، ج ٥، ص٣١١.
(٢) لم يزد طراخان عن كونه شخصا بسيطا فى بداية الأمراء، وكان أبوه فرانا، فترقى فى أيام الفتن حتى ولاه الصالح الإسكندرية فى سنة ٥٥٣هـ / ١١٥٨م ثم كانت نهايته بعد محاولة الممزوج على الصالح بصلبه على باب زويلة سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م. المقريزى: اتعاظ، ج ٣، ص ٢٣٨.
(٣) النويرى: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٢١، المقريزى: السابق، نفس الجزء، ص ٢٣٦.
(٤) عمارة اليمنى: النكت، ص ١١٣.
(٥) عمارة: النكت، ص ١١٣: ١١٤.
(٦)المقريزى: اتعاظ، ج ٣، ص ٢٣٨.

من العربان وغيرهم، فخرج إليهما الأمير المظفر " عز الدين حسام " والأمير " مجد الخلافة أسد الدين ورد " وأدركهما بعد ذلك الأمير " سيف الدين حسين "، وكان طراخان قد برز من الإسكندرية، وخيم على دمنهور وتلقب " بالملك الهادى "[١]. فكانت أن هجمت عليه عساكر الصالح التى تمكنت من إلقاء القبض عليه، وعاد العسكر إلى القاهرة، واعتقل طراخان، ولكنه فر من معتقله فى رابع ربيع الآخر ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، وظفر به فى سادسه، فصلب على باب زويله، ثم ضربت رقبة إسماعيل أخيه فى ثامنه، وصلب إلى جانب أخيه[٢]. وكان مما قال عمارة فى هذا واستحسنه الصالح:-

أراد علـــو منزلتـــه وقـــدر ... أصـبح فـوق جـزع وهـو عـال
مـد علـى صـليب الجـذع منـه ... يمينـا لا تطـول علـى شـمال
ونكـس رأسـه لعتـاب قلـب ... دعـاه إلـى الغوايـة والضـلال[٣].

وهكذا كانت فترة وزارة الصالح طلائع مليئة بحركات التمرد والخروج عليه، فى محاولات لنيل الوزارة، مستغلين فى ذلك ما تمر به البلاد من أحداث سياسية مضطربة. ويبدو أن ما شجعهم على ذلك أيضا هو ما لمسوه فى الفترة الأخيرة من وصول عدد كبير متوال من حكام الأقاليم إلى منصب الوزارة، لكن رغم كل هذه الحركات، إلا أن قوة شخصية الصالح، وقبضه على زمام الأمور، واستعانته بالمخلصين من أتباعه، كانت عوامل مساعدة له على القضاء على هذه الحركات،وعقاب أصحابها بما يردع أمثالهم.

لكن إذا كان الصالح قد نجح فى مقاومة كل هذه الحركات، ولم تتمكن إحداها من القضاء عليه، فإن نهايته كانت على يد أهل القصر أنفسهم فى ١٦ رمضان سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦٠م، حيث رتبوا له قوما فى دهاليز القصر، وثبوا عليه فضربوه عدة ضربات مهلكة، ولكنها لم تؤد إلى قتله، فكان أن خلص وبه رمق، وكان هذا مما ساعده على ترتيب ابنه

(١) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، ص ١٩٥: ١٩٦.
(٢) المقريزى:اتعاظ، ج ٣، ص ٢٣٨.
(٣) عمارة: النكت، ص ٤٦: ٤٧.

رزيك فى الوزارة من بعده[١]، إلى أن كانت نهاية بنى رزيك جميعا على يد واحد من حكام الأقاليم وهو " شاور" حاكم قوص.

فعلى الرغم مما عرف عن الصالح من قوة الشخصية، وأضعاف أمراء الدولة، والقضاء عليهم حتى خلت الدولة منهم، إلا أنه كان لا يزال يخشى جانب بعضهم، دون التعرف على كيفية الخلاص منهم، خاصة ممن كان قلده على أقاليم الدولة. ومن هؤلاء الأمير " شاور بن مجير السعدى "، الذى قلده الصالح على قوص، إلا أنه ندم على ذلك وحاول تدارك الأمر فيه، إلا أنه لم يستطع، فكان أن صرح بهذا الندم وهو على فراش الموت، بل أوصى ابنه رزيك بن طلائع بعدم التعرض لهذا الشخص[٢]. حتى لا يحركه عليه، وما كان هذا إلا علما منه بقوة شاور، وشدة سطوته، والتى ستمكنه من القيام بما يريد، وكان فعلا ما خافه الصالح، بل خافه بنو رزيك كلهم[٣].

وصدقت فعلا المخاوف والتى جرها اندفاع " العادل رزيك بن الصالح "، واستماعه لمن حوله من حاشية السوء، الذين حسنوا له خلع شاور[٤]. وذلك دون الالتفات لمحاولات الأمير "حسين بن أبى الهيجاء" فى عدم المساس بشاور، وتنفيذ وصية الصالح فيه[٥]، مذكرا له بشجاعة شاور وإقدامه فى الحرب[٦]. وفى هذا يقول النويرى: " لما كان فى سنة سبعة وخمسين، اجتمع أقارب العادل وحسنوا له عزل شاور عن ولاية الصعيد، فذكرهم بوصية أبيه، فأصروا على عزله، وكان أشدهم فى ذلك الأمير عز الدين حسام بن فضة، فألزم العادل إلى أن كتب كتابا يستدعى فيه شاور ويأمره بالحضور إلى القاهرة، فكتب إليه شاور يستعطفه ويظهر الطاعة وإلادلال لسابق الخدمة لأبيه، ومناصحته فى القيام بأمور الدولة، ثم قال فيه: "إن كان القصد أن يلى الأعمال أحدكم فليرسل السلطان من يتسلمها غير عز الدين حسام،

(١) عن هذا بالتفصيل انظر الأزدى: أخبار، ص ١٨١، النويرى: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٢٤: ٣٢٥، المقريزى: الخطط، ج٣، ص ١٧٣.

(٢) الأزدى: أخبار، ص ١٨١، النويرى: السابق، ص ٣٢٧.

(٣) عمارة: النكت، ص ١١١.

(٤) النويرى: السابق، ص ٣٢٨.

(٥)المقريزى: الخطط،ج٣، ص ٧٣.

(٦) عمارة: النكت، ص ٧٣.

وإن كان غيركم من الأمراء فأنا أحق به من سواكم، وقد سمعتم وصية أبيكم فى أمرى...." وأرسل الكتاب إلى العادل، فوقف عليه، وأوقف عليه أقاربه وأهله، فقالوا " إن أبقيته طمع فى البلاد ولا يحمل إليك مالا.... وصمموا على عزله "[١].

فكان أن خلع العادل بالفعل على أحد أقاربه بولاية قوص وهو الأمير " نصير الدين شيخ الدولة "، وكتب معه كتابا إلى شاور، فلما وصل الأمير إلى إخميم، كتب كتابا إلى شاور وفى طيه كتاب العادل. فلما وقف عليه شاور، بعث إليه " أن ارجع ولا تحضر قولا واحدا ". فرجع إلى القاهرة [٢].

وأمام هذا كله جهر شاور بالعصيان، وكان خروجه فى سنة ٥٥٧هـ / ١١٦١م، حيث أحضر جماعة من العربان من بنى شيبان وغيرهم، وتوجه من الأعمال القوصية، وجعل طريقه على الواحات، وخرج منها إلى تروجه، وحشد العربان، وأنفق فيهم الأموال، فوافقوا وانطاعوا له، فسار بهم نحو القاهرة، فندب العادل لحربه " حسين بن أبى الهيجاء " صهره، ومعه جماعة من الأمراء فراسلهم شاور واستمالهم، وبذل لهم الأموال الجمة، فمالوا إليه، فلما التقوا انهزمت قوات العادل وهرب حسين[٣] إلى مدينة الرسول – صلى الله عليه وسلم – ومات هناك[٤]. وكان هو أول من نجا بنفسه من بنى رزيك[٥]. فندب العادل بعدها عز الدين الدين حسام على رأس قوات لقتال شاور، لكن لحقته الهزيمة ثانية[٦]. وبعدها خرج العادل من القاهرة ومعه جماعة من غلمانه، وعدة بغال موقرة من المال والجواهر والثياب الخاص

---

(١) النويرى: السابق، ص ٣٢٨: ٣٢٩.

(٢) النويرى: السابق، ص ٣٢٩، المقريزى: اتعاظ، ج٣ ص ٢٥٦.

(٣) يذكر أن سبب خروج حسين أن العادل رأى فى نومه كأنه قد صار رواسا فى حانوت. فلما قص هذه الرؤيا على حسين بن أبى الهيجاء. نظر عابرا. وكان تاجرا حاذقا يعرف بابن الأرتاحى، وأخبره بما رأى، فغالطه المعبر فى التفسير، وفهم ذلك حسين، فلما خرج ألزمه أن يصدقه بتأويل ما رآه العادل. فقال" يا مولاى القمر عندنا هو الوزير كما أن الشمس هى الخلافة،والحنش المستدير عليه جيش مصحف، وكونه رواسا اقلبها تجدها شاور مصحفا. وما وقع لى غير هذا" فقال حسين: " اكتم هذا عن الناس" وأخذ حسين يحتاط لنفسه، وتجهر إلى الحجاز. المقريزى: الخطط ، ج ٣، ص ٧٣: ٧٤، اتعاظ ، ج ٣، ص ٢٥٧.

(٤) النويرى: السابق ص ٣٢٩

(٥) المقريزى: اتعاظ ٣: ٣٥٨.

(٦) النويرى: السابق ص ٣٢٩، أبو الفدا المختصر، ج٣، ص ٤٠.

وتحير فلم يدر إلى أين يذهب[١]، فتوجه نحو أطفيح، واستجار بمقدم العرب هناك " سليمان بن الفيض اللخمي[٢] " فأخذه وكل ما معه[٣].

ودخل أبو شجاع شاور القاهرة، ومعه خلق كثير، ومعه أولاده طى وشجاع والطارى، فنزل دار سعيد السعداء، وهنالك أخبره ابن الفيض بأمر رزيك، ثم أحضره إليه مكبلا[٤]. فاعتقله شاور ومعه أخاه جلال الإسلام، ثم ما لبث أن بعث جلال الإسلام إلى شاور من أعلمه أن أخاه طلب مبردا من بعض غلمان أبيه وبرد القيد الذى فى رجله ليهرب فدخلوا إليه وقتلوه "[٥]. وبهذا انقطعت دولة بنى رزيك وزالت أيامهم وانهالت على شاور أموال رزيك وذخائره.[٦]

وهكذا نجح حاكم إقليم قوص فى الوصول إلى ما هدف إليه من نيل الوزارة، بل والقضاء على دولة بنى رزيك بأكملها، واستقر بعدها فى الوزارة فى المحرم سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٢م. لكنه لم يطب له عيش، إذ خرج عليه حاكم قوص الأمير المعروف " ابن الخياط " الذى حاول الوصول للوزارة، فخرج إليه " الكامل بن شاور" وأوقع به الهزيمة، وظفر بالجميع، وامتدحه عمارة فى هذا بقوله:-

(١) وكان أول ما فت فى عضد العادل. وأضعف قواه خروج ابن أبى الهيجاء إذ يذكر أنه عندما سأل عليه، وأجيب أنه خرج، انقطع قلبه لأن حسينا كان مذكورا بالشجاعة، مشهورا بها وله تقدمه فى الدولة، ومكانة، وممارسة للحرب، وخبرة بها، ولذا لم يثبت بعد خروجه. المقريزى: الخطط، ج٢، ص ٧٣: ٧٤.

(٢) يذكر الأزدى اسمه " منيل بن النيص" أخبار الدول، ص ١٨٢، وكان سليمان هذا من أصدقاء الصالح طلائع، كما كان للصالح أياد بيضاء ونعم على هذا الشخص. النويرى: السابق، ص٣٣٠، المقريزى: اتعاظ ، ج ٣، ص ٢٥٨: ٢٥٩.

(٣) المقريزى: اتعاظ، ج ٣، ص ٢٥٨.

(٤) الأزدى: أخبار، ص ١٨٢، النويرى: السابق، ص ٣٣٠، المقريزى: اتعاظ، ج ٣، ص ٢٥٨.

(٥) يذكر النويرى سبب قتله: أن شاور بعد أن وصل للوزارة، أساء السيرة وتجبر، وبسط يده ويد أولاده فى شئون الدولة واستولى على أموالها وصرفها فى غير مصارفها، واستخف بالعاضد ومن حوله من الأمراء والجند، وساءت سيرته فى جميع أمراء الدولة، الذين أجمعوا على إخراج العادل ونصبه فى الوزارة، فاتصل ذلك بالكامل بن شاور، فأشار على أبيه بقتله فامتنع من ذلك وقال" أنه أولانى خيرا فلا أقتله" فقتله الكامل دون علم أبيه فجر بذلك غضب الأمراء، وخروج بعضهم عليه. النويرى: السابق، ص ٣٣٠: ٣٣١.

(٦) المقريزى: اتعاظ، ج ٣، ص ٢٥٩.

لياليك من بشر تعش وتبسم ... وأيامك الحسنى بمجدك تقسم
يسوق التهانى طاعة ومحبة ... إلى بابك الميمون عيد وموسم
ومنها تيممت الحال فى الصعيد لحربه ... فضاق به فوق الصعيد التميم
جلبت إليه عصبة كاملية ... بأمثالهم تبنى المعالى وتهدم[1]

ثم ما لبث أن خرج على شاور الأمير " ضرغام " وحاربه، فجمع شاور أمواله وذخائره وخرج ليلا من القاهرة متوجها إلى الشام، وذلك فى رمضان من السنة نفسها، ولكنه سرعان ما عاد من الشام مستنجدا " بنور الدين محمود " وقواته، وفعلا دخل القاهرة فى حمايتهم، وكانت بين الطرفين حروب ومراجعات كثيرة، بل ووقائع متكررة متتالية، مع الاستعانة بالقوى الخارجية، مرة بنور الدين محمود، وأخرى بالفرنج الكائنين فى بلاد الشام، والنصرة مرة لهذا، وأخرى لذاك، وكل هذا يدور دون أن يكون للخليفة فى الأمر شيء، فجروا بذلك الوبال والنهاية على الدولة، بوصول صلاح الدين لوزارة الخليفة العاضد سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩م.

وحتى فى أحلك الظروف التى تمر بها البلاد، وأثناء الصراع بين شاور وضرغام، واستعانة كل منهما بالقوى الخارجية لتثبيت أقدامه، نرى لحكام الأقاليم دورا وسط هذه الظروف جميعا. وإن كان يختلف عن كل ما سبقه، إذ نجده خاليا من الأهواء والأغراض الشخصية، بل محايدا معتدلا، يرجى منه مصلحة البلاد لا غير. ذلك ما قام به الأمير " نجم الدين بن مصال" (من ولد ابن مصال الوزير)[2]، وكان أهل الإسكندرية قد أمروه عليهم أثناء الصراع بين قوات "نور الدين" بقيادة " أشد الدين شيركوه " وابن أخيه " صلاح الدين ".

ويذكر أن هذا الأمير تنازل عن إمارة البلد لصلاح الدين حتى يتمكن من الدفاع عنها، ولما اشتد القتال بين أسد الدين شيركوه والفرنج، طلب أسد الدين المساعدة من الإسكندرية، فخرج إليه الأمير ابن مصال ومعه أهل الثغر وقاضيه وناظره، كما سير إليه خزانة من السلاح للاستعانة بها على الفرنج، كما رفض هذا الأمير ومعه أهل الثغر تسليم صلاح

(١) عمارة: النكت، ص ٣٤٨.
(٢) المقريزى: اتعاظ، ج ٣، ص ٢٨٣.

الدين – المقيم بالثغر آنذاك – لشاور، رغم المغريات التى قدمها، ورغم حصاره المرير لهم، إلى أن تأزمت الحال بصلاح الدين ومن معه، فاضطر للخروج إلى ملك الفرنج، فكان أن استتر ابن مصال وفر إلى الشام[1].

وبهذا يكون دور حكام الأقاليم ومشاركتهم فى الحياة السياسية قد امتد إلى أبعد الحدود، وحتى فى أحلك الظروف السياسية، والتى يتحدد معها مصير الدولة والبلاد ككل.

مما سبق يتضح لنا الدور الذى قام به حكام الأقاليم فى مصر فى عصر الخلفاء الفاطميين فى المشاركة فى السياسة الداخلية للدولة، والذى مكنهم أحيانا من السيطرة على مقاليد الأمور فى البلاد، أو حتى التحكم فى مصير الخلافة، بل نراه يمتد للقيام بدور فعال فى توجيه سياسة الدولة فى أواخر عهدها.

ثانيا: فى السياسة الخارجية:

من المعروف أنه منذ أن دخل الفاطميون مصر، وأقاموا بها دولتهم، وهم محاطون بالأعداء من كل جانب، من العباسيين فى العراق والشام، إلى الدولة البيزنطية فى الشمال، إلى مسيحى بلاد النوبة متكررى الإغارة على مصر أحياناً، أو مانعى الجزية أحيانا، أو مسالمين وأصدقاء أحيانا أخرى. وقد تحدث المؤرخون والكتاب كثيرا عن علاقة الفاطميين فى مصر بهذه الدول جميعا، وقد أجمعت هذه الكتابات على توتر العلاقة وتأزمها، وإن شابها بعض فترات السلم، إلا أن السمة الغالبة لهذه العلاقات هى التوتر، ومن ثم أوجبت الدخول فى الكثير من المصادمات والحروب العسكرية من قبل الفاطميين تجاه هؤلاء مرة يكونون فى موقف هجوم، وأخرى فى موقف دفاع. لذا حرص الفاطميون على إعداد جيش قوى من حيث العدد والعدة [2]، كما كان عليهم الاهتمام بمناطق ثغورهم، والتى كانت باستمرار عرضة لهجمات الأعداء، لذا حرصوا على وجود قوات مركزية مستمرة فى الثغور، وفى هذا يروى المقريزى: " أن الفاطميين كان من عادتهم إنزال العساكر فى مراكز الحدود (

---

(١) المقريزى: الخطط، ج٢، ص ٢٨٢، اتعاظ، ج ٣، ص ٢٨٢: ٢٨٤.

(٢) عن هذه العلاقات بالتفصيل وما مرت به من مراحل انظر د. ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر، ج١، ص٢٠٥: ٢٠٧.

الثغور) فى دمياط وتنيس ورشيد وعيذاب وأسوان والإسكندرية، تكون على أهبة الاستعداد للدفاع عن المكان، وتعرف هذه الجنود باسم المركزية [١]".

لكن ما يهمنا هنا الآن هو دور حكام الأقاليم المصرية فى مجال العلاقات الخارجية لدولة الخلفاء الفاطميين فى مصر، وعلى ما يبدو أن دورهم لم يكن كبيرا فى هذا المجال، إذ أن هذا الأمر من الشئون السياسية العليا التى تخص الحكومة المركزية، بل يرجح أن دورهم كان مقتصرا على الدفاع عن أقاليمهم ضد أى عدوان خارجى، فضلا عن تنفيذ أوامر الحكومة المركزية فيما يخص هذا المجال، كأن يطلب من حاكم الإقليم الاشتراك فى حمله من الحملات الموجهة إلى الأعداء[٢]، أو عقد معاهدة [٣]، أو نحو هذا مما ترسمه الحكومة المركزية لهم.

الدفاع عن الأقاليم ضد العدوان الخارجى:-

يشير المؤرخون إلى وجود قوات عسكرية بالأقاليم، تكون دائما على أهبة الاستعداد للدفاع عن الأقاليم[٤]، وأغلب هؤلاء الجنود يتم جمعهم من الأقاليم ثم يرسلوا لحفظ الأطراف[٥]. ويبدو أن قيادة هذه القوات كانت تسند لحكام الأقاليم، وخاصة أثناء الأزمات، حتى تصل الجيوش الرئيسية وتتولى هى الأمر[٦]. وقد سجل لنا التاريخ العديد من الأحداث والوقائع الحربية الخارجية التى قام حكام الأقاليم فيها بدور فعال. من ذلك ما كان يقوم به أمراء أسوان فى الدفاع عن الدولة وحمايتها ضد هجمات مسيحى النوبة والسودان عليها، وفى هذا يذكر المقريزى " أنه كان بأسوان رجال من العسكر مستعدون بالأسلحة لحفظ الثغر من هجوم النوبة والسودان عليه، فلما زالت الدولة الفاطمية أهمل ذلك "[٧]. ويبدو أن قيادة

---

(١) د. ماجد: نظم، ص ٢٠٥، نقلا عن المقريزى، الخطط، ج ١، ص ٢١٢.
(٢) عطية القوصى: بنو الكنز دراسة تاريخية، ص ٥٩: ٦٠.
(٣) المقريزى: اتعاظ، ج٣، ص٤١.
(٤) المقريزى: الخطط، ج١، ص ٣٢١، ٣٤٢: ٣٤٣.
(٥) المقريزى: اتعاظ، ج١، ص ٢٢٨.
(٦) المقريزى: الخطط، ج١، ص ٣٤٢، اتعاظ، ج٣، ص ٤١.
(٧) المقريزى: الخطط، ج١، ص ٣٢١.

هذه القوات كانت تسند لحكام الصعيد، حيث كان على حاكم الإقليم الدفاع عن إقليمه، لكن لم يكن له القيام بأى هجوم إلا بعد إذن الحكومة المركزية وقرارها فى الأمر[١].

أمثلة لما قام به حكام الأقاليم فى هذا المجال:-

كان لحكام الأقاليم المصرية فى عهد الخلفاء الفاطميين دور لا يستهان به فى سياسة الدولة الخارجية، ولا سيما فى مجال الدفاع عن البلاد ومحاربة الأعداء. ومن ذلك ما حدث سنة ٥٠١هـ/ ١١٠٧م، حيث يذكر المقريزى فى أحداث هذه السنة أن " الأخبار وردت بأن متملك النوبة[٢] قد تجهز برا وبحرا، وعول على قصد البلاد القبلية، فسير الأفضل عسكرا إلى قوص، وتقدم إلى والى قوص بأن يسير بنفسه إلى أطراف بلاد النوبة، فورد الخبر بوثوب أخى الملك عليه وقتله، واشتداد الفتنة بينهم، حتى أباد أهل بيت المملكة، وأجلس صبى فى الملك، فأرسلت أمه تستجير بعفو الأفضل وتسأله ألا يسير إليهم من يغزوهم، فكتب لوالى الصعيد الأعلى بأن يسير عسكرا إلى أطراف بلاد النوبة، ويبعث إليهم رسولا يجدد عليهم القطيعة الجارى بها العادة[٣]، وهى كل سنة ثلثماء وستين رأسا رقيقا، بعد أن يستخلص منهم ما يجب عليهم فى السنين المتقدمة، فلما دخلت العساكر نحوهم دخلوا تحت الطاعة، وكتبوا المواضعات، وسألوا فى الإعفاء، وحملوا ما تيسر لهم، وعادت العساكر كاسبة "[٤].

---

(١) انظر اختصاصات الأمير فى التمهيد، ص (١٥).

(٢) كانت العلاقة بين مصر وبلاد النوبة متأرجحة، مرة تتسم بالمودة والوفاق، وأخرى بالعداوة والحرب، ففى عهد بدر الجمالى مثلا، فكانت العلاقة تتسم بالمودة والوفاق حتى أنه قبل شفاعة ملك النوبة فى بنى الكنز عندما خرجوا على الطاعة فى عهد المستنصر. ابن المقفع: تاريخ البطاركة ج٣ ص ٨٨، ٩٠، كما أنه تلقى ملك النوبة الذى أتى لزيارة مصر وأتحفه بالهدايا والذخائر، لكن سرعان ما انقلب الأمر فى عهد الأفضل ابنه كما هو واضح من النص الذى بين أيدينا. عن هذا انظر د. المناوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى، ص ٢٣٦.

(٣) وكانت القطيعة الجارى بها العادة هذه هى الجزية المفروضة عليهم والمعروفة " بالبقط" وهو ما يقبض من سبى النوبة فى كل عام، ويحمل إلى أرض مصر ضريبة عليهم، وأول ما تقرر هذا النقط على النوبة فى إمارة عمرو بن العاص لما بعث عبد الله بن سعد بن أبى السرح إلى بلاد النوبة، فلما عرض عليهم الأمان ودفع الجزية قبلوها، وكان من بين ما تقرر فى هذا العهد أن يدفعوا فى كل سنة لإمام المسلمين ثلاثمائة وستين رأسا يدفعونها إلى الأمام من أوسط رقيق بلادهم غير المعيب، يكون فيها ذكران وإناث، ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز، ولا طفل لم يبلغ الحلم تدفع لوالى أسوان. المقريزى: الخطط، ج١، ص ٣٢٢: ٣٢٣ .

(٤) المقريزى: اتعاظ، ج٣، ص ٤١.

من خلال النص يتضح لنا بجلاء الدور المكلف حكام الأقاليم القيام به فى مجال السياسة الخارجية، ولا سيما الدفاع عن الدولة، ومحاربة الأعداء، وكما هو واضح أيضا بأن حاكم الإقليم لم يقم بالحملة من تلقاء نفسه، بل إن الأمر صدر له من الحكومة المركزية بذلك كما حددت له الخطوات الواجب عليه اتباعها فى هذه العملية.

ومن هذا أيضا ما وقع سنة ٥٠٩هـ /١١١٥م حينما ورد الخبر " بأن بغدوين ملك الفرنج وصل إلى الفرما. فسير الراجل من العطوفية [١]، وسير إلى والى الشرقية بأن يسير المركزية والمقطعين إليها، ويتقدم إلى العربان بأسرهم أن يكونوا فى الطوالع، ويطاردوا الفرنج ويشارفوهم بالليل قبل وصول العسكر والحواشى، فوصلت العربان والعساكر فنهبت الفرما، وأخربت وألقى فيها النيران، وهدم المساجد وعزم على الرجوع، فأدركته المنية. ومات، فأخفى أصحابه موته، وساروا وقد شقوا بطنه وحشوه ملحا، وشنت العساكر الإسلامية الغارات على بلاد العدو،وخيموا على ظاهر عسقلان ثم عادوا "[٢].

هكذا نجد أنه قد يعهد لحاكم إقليم ما القيام بالدفاع عن إقليم آخر ضد أى عدوان خارجى، وذلك حماية للبلد والخلافة بأجمعها، وهذا مشروط بخروج الأمر بهذا من الحكومة المركزية، والتى لم تكتف بالأمر، بل حددت لوالى الشرقية الخطة التى يجب عليه اتباعها أثناء الحرب، من حشد العربان والجنود وغير ذلك.

أما إذا كان هجوم العدو على الإقليم المعنى مباشرة، فيجب على حاكمه آنذاك القيام بالدفاع عن الإقليم على وجه السرعة، ودون الرجوع للحكومة المركزية فى الأمر أو انتظار أوامرها. من ذلك ما حدث للإسكندرية سنة ٥١٧هـ / ١١٢٣م والقائم بأمرها آنذاك المؤتمن أخو المأمون البطائحى، وفى هذا يقول المقريزى: " وبلغه – يعنى المؤتمن – نزول

---

(١) العطوفية: حارة العطوفية تنسب إلى طائفة من طوائف العسكر يقال لها العطوفية وذكر أن هذه الطائفة تنسب لعطوف أحد خدام القصر، وهو عطوف غلام الطويلة وكان قد خدم ست الملك أخت الحاكم، وكانت العطوفية من أجل مساكن القاهرة، وفيها من الدور العظيمة والحمامات، والأسواق والمساجد ما لا يدخل تحت حصر، وقد خربت كلها وبيعت أنقاضها وبيوتها ومنازلها وأصبحت أوحش من وتدعير فى قاع، وعطوف هذا كان خادما أسود قتله الحاكم بجماعة من الأتراك وقفوا له فى دهليز القصر واحتزوا رأسه فى يوم الأحد لإحدى عشرة خلت من صفر سنة ٤٠١هـ. المقريزى: الخطط، ج٣، ص ٢٠: ٢١.

(٢) المقريزى : الخطط، ج١، ص ٣٤٢، اتعاظ، ج٣، ص ٥٣.

مراكب الروم والبنادقة، وهى بضع وعشرون مركبا على الإسكندرية، فبادر إليها (المؤتمن)... فلما شاهده العدو أقلع، فأخذ منهم عدة قطع "[١].

وإلى جانب هذه الواقعة يذكر المؤرخون عددا من الحروب الأخرى قام بها أسطول الإسكندرية ضد الأعداء فى محيط البحر المتوسط، حيث يذكر أن سفن أسطول الإسكندرية كانت تقلع من الثغر لغزو بلاد الدولة البيزنطية، وتعود مثقلة بالغنائم والأسرى، أوتجر وراءها عددا من قطع أساطيل العدو، هذا فضلا عما كان يقوم به أسطول الإسكندرية من دور هام فى حماية المدينة من غارات الأعداء[٢]. من ذلك ما ذكره المقريزى فى أحداث سنة ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م من أن " سفن الأسطول السكندرى اشتبكت فى البحر مع الروم بنواحى الإسكندرية أسر فيها من الروم سبعون "[٣]. كما يذكر فى أحداث نفس السنة ورود مراكب الروم إلى الإسكندرية، فسار الأسطول إليهم، وزيد فيه ثمانية عشر مركبا، مشحنة بالسلاح والمقاتلة"[٤] ثم يذكر "وعاد الأسطول إلى قاعدته فى جمادى الأولى سنة ٣٨٤هـ / ٩٩٤م واحتفل بهذا احتفالا كبيرا حضره الخليفة العزيز نفسه"[٥].

ومن المواقع التى اشترك فيها أسطول الإسكندرية أيضا ما يذكره فى سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٧م من غزو المراكب المصرية التى وصلت من الإسكندرية " فيها المراكب الغيطانى والمركب العجزى، وكانت عظيمة الجرم جدا، وكانت فيها أموال عظيمة وخلق كثير[٦]". كما يذكر فى سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م قدوم أسطول الإسكندرية من غزوه للسواحل التابعة للبيزنطيين ثم عودته وقد املأت أيدى الغزاة بالغنائم.[٧]

كما قام أسطول دمياط بدور لا يقل عن الدور الذى قام به أسطول الإسكندرية من حماية الإقليم والدفاع عنه، وكذلك الاشتراك فى حملات حربية خارجية موجهة لبلاد

---

(١) المقريزى : اتعاظ، ٣/ ٩٨.

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها، ص ٢٠٢.

(٣) المقريزى: اتعاظ، ج١، ص ٢٧٧.

(٤) المقريزى: نفس المصدر والجزء ٢٧٨.

(٥)المقريزى : اتعاظ ،المقريزى: اتعاظ، جـ١ ، ص ٢٨٢

(٦) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها ص ٢٠٣.

(٧)المقريزى : اتعاظ، ج٣، ص ٢٣٣.

الأعداء. من ذلك ما قام به الأسطول فى عهد الخليفة الفائز، وتحددا سنة ٥٥٠هـ / ١١٥٥م من أنه وصل إلى دمياط أسطول صاحب صقلية فى نحو ستين مركبا، فعاثوا وقتلوا ونزلوا بتنيس ورشيد والإسكندرية فأكثروا فيها الفساد. فتصدى لهم أسطول دمياط حتى ردهم[١]. كما يذكر ابن إياس: " أنه فى سنة أربع وستين وخمسمائة، وردت الأخبار بأن الفرنج جاءت إلى ثغر دمياط، ونهبوا أسواقها، وقتلوا أهلها، ثم زحفوا على الضياع، وأكثروا فيها القتل والسبى، ثم وصلوا إلى بلبيس، وكسروا عساكر الفسطاط، ودخلوا القاهرة.... ثم توجهوا إلى بركة الحبش، وأخذوا يقتلون من وجدوه من المسلمين وقرروا على أهل مصر والقاهرة أموالا جزيلة، وأخذوا فى أسباب جبايتها "[٢] ويبدو أن الذى أدى بأسطول دمياط أن يقف عاجزا بهذا الشكل، هو الظروف الحرجة التى كانت تمر بها البلاد آنذاك من ضعف وهوان وخراب[٣].

هكذا كان لأسطول الإقليم " دور كبير فى مجال السياسة الخارجية للدولة من الدفاع عنها أو توسيع نفوذها بالإغارة على الأعداء، لكن لا يمكن تقرير أو تأكيد أن قيادة هذا الأسطول كانت تسند لحاكم إقليم الأسطول – كما هو الحال فى أسطول عيذاب مثلا.[٤] لكن حتى إذا لم يكن هو المتولى لقيادة هذا الأسطول، فلا يستبعد قيامه بدور فعال فعال فى هذه الحروب من المشاركة فى تجهيز الأسطول، أو إعداد المقاتلين وتزويدهم بما يحتاجون إليه، باعتباره الحاكم الأعلى للإقليم والمسئول الأول عن كل صغيرة وكبيرة فيه.

وأحيانا يشترك حاكم الإقليم فى حملة حربية موجهة على الأعداء فى بلادهم، وإن لم يكن هؤلاء الأعداء مجاورين له، من ذلك ما ذكر عن بنى الكنز، وإمارتهم التى أقاموها بأسوان ومحاولتهم الاستقلال، وتصدى بدر الجمالى لهم، ونجاحه فى ذلك وقبضه عليهم ثم

---

(١) عن هذا بالتفضيل انظر د.الشيال: مجمل تاريخ دمياط، ص ١٥.

(٨) عنها انظر المقريزى: اتعاظ ، ج ٣ ، ص٣٣٤، د. الشيال: مجمل تاريخ دمياط، ص ١٥.

(٩) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص ٢٣١.

(٣) عن هذا بالتفصيل انظر المقريزى: اتعاظ، ج٣، ص ٢٩١، وما بعدها.

(٤) يذكر القلقشندى: بأنه كان للفاطميين أسطول بعيذاب يتلقى به الكارم فيما بين عيذاب وسواكن، وما حولها خوفا على مراكب الكارم من قوم كانوا بجزائر بحر القلزم هناك يعترضون المراكب فيحميها الأسطول منهم ..... وكان والى قوص هو المتولى لأمر هذا الأسطول، وربما تولاه أمير من الباب. صبح الأعشى، ج٣، ص ٥٢٠.

ما لبث أن عفا عنهم بشفاعة ملك النوبة فى ذلك، كما رضى بعودة نفوذهم فى منطقة إمارتهم عند أسوان، وعين ابن أخى كنز الدولة محمد واليا على أسوان بعد قرار العفو عنهم، وذلك تقريبا سنة ٤٧٤هـ / ١٠٨١م، وهذا الوالى هو سعد الدولة سارتكين[١]. وظلت علاقة سعد الدولة طيبة بالخلافة باقى خلافة المستنصر، حتى وفاته ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م، أو خلال سنوات خلافة المستعلى بالله، والدليل على ذلك اشتراكه فى الحملة ضد الفرنج سنتى ٤٩٣: ٤٩٤هـ / ١٠٩٩ – ١١٠٠م بتكليف من الأفضل بن بدر الجمالى، وكان مقتله بعسقلان خلال إحدى المعارك الصليبية التى دارت هناك[٢].

بهذه الأمثلة لمواقع حربية اشترك فيها حكام الأقاليم نكون قد تعرفنا على دور حكام الأقاليم فى مجال السياسة الخارجية، من دفاع أو هجوم ضد الأعداء، أو حتى عقد معاهدات، أو تجديدها، وذلك كله فى حدود ما يرسم له ويسمح به.

من خلال العرض السابق، يتضح جليا أنه قد برزت عدة عوامل هيأت الظروف أمام بعض حكام الأقاليم للتدخل فى الحياة السياسية فى المجالين الداخلي والخارجي، وأن صور هذا التدخل كانت متعددة ومختلفة. مما كشف لنا عن شكل وطبيعة المسار الذى اتجه إليه نفوذ بعض هؤلاء الحكام من القوة والاتساع، والذي وصل فى بعض الأحيان إلى التحكم فى شئون الخلافة نفسها، خاصة فى فترات الأزمات السياسية فى الداخل وفى الخارج.

(١) عن هذا بالتفصيل انظر ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ج٣، ص ٨٨، ٩٠.
(٢) د. القوصى: بنو الكنز دراسة تاريخية، ص ٥٩.